

الفلسفة واللاهوت

تأليف

مولانا الإمام أحمد رضا خان الحنفى

ترجمة

محمد جلال رضا - غلام محمد بت

دار البيان

للطباعة والنشر والتوزيع

إهداء 2005

الأستاذ/ محمد حسين قاضي

انجلترا

الفلسفة والإسلام

تأليف

مولانا الإمام أحمد رضا خان الحنفي

١٢٧٢هـ / ١٣٤٠هـ - ١٨٥٦م / ١٩٢١م

مُرجمه من الأردية

غلام محمد بت

محمد جلال رضا

دار البياض



للطباعة
والنشر
والتوزيع

٤ عمارات الجبل الأخضر

بجوار نادي السكة الحديد

ووزارة المالية الجديدة

مدينة نصر

تليفاكس: ٤٨٢٢٤٨٧

ت- ٤٨٣٤٣٢٧

رقم الإيداع

٢٠٠٢/١٤٣٧٨

الترقيم الدولي

I.S.B.N.977-335-093-2

مقامع الحديد

على خد المنطق الجديد

المعروف بـ

الفلسفة والإسلام

الفلسفة والإسلام

تأليف

مولانا الإمام أحمد رضا خان الحنفي

١٢٧٢هـ / ١٣٤٠هـ - ١٨٥٦ / ١٩٢١م

ترجمه من الأردية

محمد جلال رضا • غلام محمد بت

قسم التفسير

كلية أصول الدين

جامعة الأزهر الشريف

القاهرة - مصر

قسم التفسير

كلية أصول الدين

جامعة الأزهر الشريف

القاهرة - مصر

اسم الكتاب: مقامع الحديد على خد المنتطق الجديد

المعروف ب: الفلسفة والإسلام

تأليف: مولانا الإمام أحمد رضا خان الحنفي

ترجمة: محمد جلال رضا

ناشر: المكتبة القادرية ٢٩ شارع والنط ، لانكاشير، بولطن - بريطانيا.

الطبعة الأولى: جمادى الأولى ١٤٢٣ هـ / أغسطس ٢٠٠٢ م.

المطبع: دار البيان

تعداد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

تصحيح الأخطاء المطبعية: محمد أفتاب عالم

جميع الحقوق محفوظة للمترجم

شكر واجب

طبع هذا الكتاب على نفقة الحاج الأخ/

حسن صالح بتيل وقد عاوننا في ذلك بمجهودات

مشكورة كل من الحافظ والقارئ فضيلة الشيخ/

محمد مقصود المصباحي الخطيب والإمام بجامع

الغوثية يوزيري، بولطن-بريطانيا

وفضيلة الشيخ العلامة محمد إقبال المصباحي خطيب

وإمام بجامع نور الإسلام، بولطن-بريطانيا

ونتضرع إلى المولى الكريم أن يجعل هذه المساهمة

السخية منهم في ميزان حسناتهم يوم لا ينفع

مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب

سليم.

أهراء

إلى روح الإمام العارف بالله أستاذ المتكلمين وخاتم
المحققين جامع المعقول، والمنقول، بحر الشريعة والطريقة،
العلام الشيخ / محمد نقي علي خان (والد المؤلف العلامة -
رحمهما الله تعالى رحمة واسعة) الذي أشرى المكتبات
الإسلامية بعشرات المؤلفات الممتعة ونفض من وجه
العقيدة الإسلامية الغبار المثار من بعض الأقلام الزائفة،
ووقف حياته في الدفاع عن الإسلام والمسلمين والرد علي
البدع والمنكرات والزيف والانحراف، وخرج لصالح الإسلام
أعظم مدافع عن العقيدة الإسلامية في شبه القارة
الهندية أعني ابنه البار الشيخ الإمام أحمد رضا خان
الحنفي.

فجزاهما الله أعظم الجزاء

محمد جلال رضا

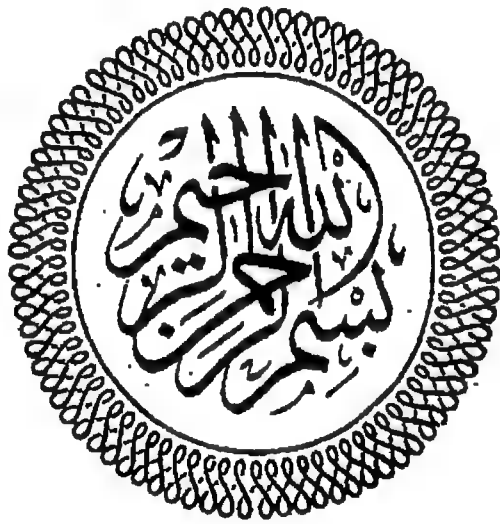
أملُ الآمال

إلى مولانا الإمام أحمد رضا خان الحنفي

ألا صـحـبـي أنـيـرـوا في الظلام	*	فهذا شمس مولانا الإمام
يبـدـد نـورـها حـجـبـاً الـديـاجـي	*	ويهدى بكم إلى سبيل السلام
ويـمـلأ قـلـبـكـم بـسـنـا الـيـقـيـن	*	وحب المصطفى خير الأنام
ألم تـسـمـع لـأصـوـات تـنـادـي	*	هلموا ههنا حسن المقام
لـدي وأحمد رضا، زين الضقيه	*	عظيم الجود والفيض المدام
لـه صـوتـاً وصـيـتـاً في التـوادي	*	وذكر طيب عند الكرام
لـه حـجـجٌ إذا عـجـز الفـحـول	*	وقول قاطع وقت الخصام
أدلتـه شـمـسـاً لـلنـفـوس	*	وأمن الخائفين من العمام
ويـرق فـمـوق رأس المارقين	*	وسيف فوق أعناق اللئام
برئ عن هوى نفس وجـاه	*	وعن تاج الغلا والاحتشام
عـظـيـمـة هـمة فـوق الجبال	*	وماض في الإرادة كالخسام
وسـبـاق إلى نيل المعالي	*	بلا رد ومنع وازد حسام
قوى العزم في حل الصعاب	*	ونفضا إلى قسم المرام
ومستوح من القرآن رشداً	*	وهدى المصطفى خير الأنام
فلـا يـتـجـاوز المرمى جـزافـاً	*	إذا هدفا رماه بالسهم
وشاهدة على ما أذعـيه	*	رجال، صفوة البلد الحرام
سـمـى المولى ثراه كل أن	*	إلى يوم القيامة بالدوام
وأنزل فوق مدفته الشريف	*	شباباً كأمطار الغمام
أجب هذا دعاء من أثيم	*	له أمل إلى حسن الختام

من شعر محمد جلال رضا

من أبناء الأزهر الشريف





لفضيلة الأستاذ الدكتور محيي الدين الصافي
الأستاذ المتفرغ بقسم العقيدة والفلسفة
بكلية أصول الدين جامعة الأزهر بالقاهرة
وعميد الكلية ورئيس القسم سابقاً

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد، فقد قرأت كتاب «الفلسفة والإسلام»، «مقام الحديد على خد المنطق الجديد» تأليف مولانا الإمام أحمد رضا خان الحنفي المتوفى سنة ١٣٤٠ هـ الموافق ١٩٢١ م، وقد ألفه ليرد به على كتاب «المنطق الجديد» لناطق ألنا له الحديد» وقد نسبه لزيد الفلسفي، وقد ضمنه ثمانية أقوال، أي ثمان مسائل من مسائل الفلسفة، وقد رد على كل مسألة باستفاضة، وكفر زيدا الفلسفي في الأربعة أقوال الأول، والقول الأول منها يتناول نظرية الصدور، أو ما يسميه الفلاسفة بنظرية العقول العشرة، المتعلق كل منها بكوكب من الكواكب السيارة التي تدور حول الشمس، وآخرها العقل الفعال، وهو عقل فلك القمر، الذي فاضت عنه النفس الكلية، وعنهما فاض العالم الأرضي بما فيه من جماد ونبات وحيوان، وهذه النظرية اخترعها الفلاسفة ليبرروا بها قولهم بقدم العالم، وأساس هذه النظرية اعتقادهم بأن الواحد البسيط من كل وجه لا يصدر عنه إلا واحد، ثم قالوا «والله تعالى واحد بسيط، فلا يصدر عنه إلا واحد، وهكذا تفتق ذهنهم عن هذه الخزعبلات، فقالوا، إن الله تعالى فكر في نفسه ففاض عنه عقل أول، وهذا العقل الأول له جهتان يفكر فيهما، ففكر أولا في مبدئه وهو الله ففاض عنه عقل ثان وفكر في نفسه ففاض عنه نفس وجرم الفلك الأقصى، وهكذا عن العقل الثاني فاض العقل الثالث، ونفس وجرم الفلك الثاني وهكذا توالى الفيوضات إلى أن

وصلت إلى العقل العاشر وهو عقل فلك القمر وهو العقل الفعال عندهم وعنه فاضت النفس الكلية، وعنهما فاض العالم الأرضي بما فيه، ولذا قال الفلاسفة بقدم العقول العشرة، وقالوا بقدم ما يسمى عندهم بالهسولي والصورة، وقالوا بقدم العناصر أربعة التي تتكون منها الموجودات الجزئية في الكون، وهذه العناصر هي الماء والتراب والهواء والنار، فباجتماعها تتكون الحوادث الجزئية، فالمادة قديمة، والصور والأعراض حادثة، وبافتراق هذه العناصر تفنى الحوادث، وتجدد في جزئيات أخرى وهكذا إلى غير ذلك من حماقاتهم وأقوالهم الباطلة، وقد أفاض الشيخ أحمد رضا خان في الرد على من يقول: بقدم العالم أو بقدم شيء منه، كالعناصر الأربعة، والهسولي والصورة كما يدعون، وساق آيات كثيرة من القرآن الكريم تبين أن العالم بجميع ما فيه حادث ومخلوق، وكفر كل من يقول بنظرية العقول العشرة، أو بقدم شيء من العالم، وأنا أوافقه في تكفير كل من يقول بقدم العالم أو بقدم شيء منه، وكذلك القول بنظرية العقول الباطلة، وقد سبقنا في هذا التكفير الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي فقد كفرهم في كتابه «تهافت الفلاسفة» لقولهم بقدم العالم ولقولهم بعدم علم الله تعالى للجزئيات، ولقولهم بعدم حشر الأجساد، وقال عن نظرية العقول إنها باطلة، ولو حكاهما الإنسان عن منام رآه لاستدل بها على سوء مزاجه، وكتب أود أن يتضمن الكتاب بعض هذه الأدلة التي رد بها الغزالي على الفلاسفة لقولهم بقدم العالم، وأنا مع الشيخ أحمد رضا خان في نفيه أن تكون الملائكة هي العقول المجردة؛ لأن العقول عندهم مجردة عن المادة وعن جميع شوائب النقص والقيح والجهل كما يدعون: وهي لا يعزب عن علمها ذرة من ذرات كل موجود في العالم كلياته وجزئياته، ومادياته ومجرداته، وأما الملائكة فهي عند أهل السنة أجسام نورانية خلقهم الله تعالى من العدم، وخلقهم لعبادته، وهم لا يأكلون ولا يشربون، ولا يتناكحون ولا يتناسلون بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون» وهم لا يعلمون كل شيء كما يدعي الفلاسفة في العقول، وقد ورد في تفسير قوله تعالى من سورة الأعراف

: ﴿خذ العفو وأمر بالمعروف واعرض عن الجاهلين﴾ أنه لما قرأها جبريل على النبي ﷺ سأله النبي ﷺ ما هذا يا أخي يا جبريل: قال: لا أدري حتى أسأل رب العزة سبحانه وتعالى، فغاب وجاء فقال: يا محمد إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وأن تصل من قطعك، وأن تعطي من حرمك» فهذا يدل على أن الملائكة لا تعرف إلا ما يعرفهم الله تعالى، وأنا لست مع الشيخ في ذم الفلسفة ككل لأن الفلسفة فيها حق وباطل، فحقها حق، وباطلها باطل، فحين تستدل على وجود الله ووحدانيته فهي حق وعندما تقول بقدوم العالم وعدم حشر الأجساد فهي باطل والكندي فيلسوف استخدم الفلسفة في استدلاله بالأدلة اليقينية على حدوث العالم، وقال إن الله تعالى أحدثه من كتم العدم المحض، فلا هوى ولا صورة كما يدعي الفلاسفة؛ لأنه تعالى يقول للشيء كن فيكون، فقدرته تامة لا يعجزها شيء ومن تعريفات الفلسفة أنها محبة الحكمة، فكيف تكون محبة الحكمة مذمومة، وقد قال تعالى: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا ألو الألباب﴾ على خلاف في تفسير الحكمة.

وقد ذكر ابن رشد في كتابه «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» أن الغرض من هذا القول أن نفحص على جهة النظر الشرعي هل النظر في الفلسفة، وعلوم المنطق مباح بالشرع أم محظور أم مأمور به إما على جهة الندب، وإما على جهة الوجوب فنقول: إن كان فعل الفلسفة ليس شيئاً أكثر من النظر في الموجودات، واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع أعني من جهة ما هي مصنوعات، فإن الموجودات إنما تدل على الصانع لمعرفة صنعتها، وأنه كلما كانت المعرفة بصنعتها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم، وكان الشرع قد ندب إلى اعتبار الموجودات وحث على ذلك: فبين أن ما يدل عليه هذا الاسم إما واجب بالشرع وإما مندوب إليه، فأما أن الشرع دعا إلى اعتبار الموجودات بالعقل، وتطلب معرفتها به، فذلك بين في غير ما آية من كتاب الله تبارك وتعالى مثل قوله تعالى: ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾، وهذا نص على وجوب استعمال القياس العقلي، أو

العقلي والشرعي معاً ومثل قوله تعالى : ﴿أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء﴾ وهذا نص بالحث على النظر في جميع الموجودات» هذا ما كتبه ابن رشد في مقدمة كتابه «فصل المقال» وهو الحق وعلى هذا فذم الشيخ أحمد رضا خان للمنطق ليس بصحيح؛ لأن الغزالي قال: من لا معرفة له بالمنطق فلا يوثق بعلمه.

وقد كتب الشيخ الأخضرى في منظومته في المنطق وهي متن السلم الخلاف في ذلك والرأي الحق فقال: والخلف في جواز الاشتغال به على ثلاثة أقوال، فابن الصلاح والنووي حرماً، وقال قوم ينبغي أن يعلموا، والقولة المشهورة الصحيحة جوازه لسالم القريحة، ممارس السنة والكتاب ليهتدي به إلى الصواب أما قول الفلاسفة بقدوم العالم وعدم الله تعالى بالجزئيات وعدم حشر الأجساد، فإنهم في أقوالهم هذه قد خالفوا المنطق، وقلدوا أرسطو في أقوالهم هذه، ولذلك كفرهم الغزالي من غير تردد، أما مسألة التكفير بالأقوال التي تصدر من الناس فقد فصلها الشيخ تفصيلاً بينا وقد قال : إن فقهاء الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة كفروا من قال بقدوم العالم اقتداءً بالغزالي؛ ولأن الفلاسفة في قولهم بقدوم العالم، يكذبون الله تعالى في قوله «خلق السموات والأرض» والخلق هو الإنشاء من العدم، فمن يكذب الله تعالى فهو كافر.

ولكن ينبغي أن يترتب الإنسان في تكفير المسلم، وكما قال الغزالي في «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» أن الإنسان إذا وجد في قول أخيه تسعة وتسعين في المائة كفر، وواحد مع الإسلام والإيمان فيحمل قوله على الإسلام، ويترك التسعة والتسعين المكفرة، وقد أشار إلى هذا الشيخ في خاتمة كتابه، هذا لأن التكفير أمر عظيم؛ لقول الرسول ﷺ: إذا قال المسلم لأخيه المسلم يا كافر فقد باء بها أحدهما، وقد فصل الإمام عضد الدين الإيجي القول في هذا في كتابه «المواقف»، وسعد الدين التفتازاني في كتابه «المقاصد». والشيخ عمر النسفي في كتابه «العقائد النسفية».

وقد خرج الإمام أبو حامد الغزالي جميع الأقيسة المنطقية سواء أكانت حملية أم شرطية من القرآن الكريم في كتابه «معيار العلم» وهو كتاب في المنطق « فمن الأقيسة الحملية خرج الشكل الأول من قوله تعالى على لسان إبراهيم: أنا أحى وأميت وكل من يحى ويميت إله .: أنا إله.

ومن القياس الشرطي الاستدلال علي الوجدانية لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا لكنهما لم تفسدا بالمشاهدة إذن ليست هناك آلهة غير الله.
والله تعالى الموفق للحق والهادي إلى سواء السبيل.

لفضيلة الأستاذ الدكتور مجيب الدين الصافي

الأستاذ المتفرغ بقسم العقيدة والفلسفة

بكلية أصول الدين جامعة الأزهر بالقاهرة

وعميد الكلية ورئيس القسم سابقاً

القاهرة يوم الاثنين الثالث من جمادى الآخرة لسنة ثلاث وعشرين وأربع مائة وألف للهجرة النبوية
الشريفة الموافق الثاني عشر من أغسطس لعام اثنين وألفين للميلاد

تقديم

الحمد لله الذى أكرم الإنسان بالعقل، وميزه به على كثير ممن خلق، وجعل العقل مناط الأحكام الشرعية، وحرم كل ما يؤدى إلى إتلافه أو تعطيله، وأبعد كل العوائق والموانع عن طريقه، وحض على استعمال العقل والفكر بكل لون من ألوان الحض والإغراء، بل جعل من لا يستعمل العقل أضل وأهون من الحيوان، والصلاة والسلام على من أكرمه بتلك المعجزة العقلية الخالدة معجزة القرآن الكريم، وعلى آله وصحبه العقلاء الفطناء وعلى علماء أمتهم أجمعين، أما بعد.

فلا شك أن الإسلام قد قدم للعالم عبر التاريخ شخصيات خلاقة فى مختلف المجالات العلمية، النظرية، والتجريبية، وعقولا جبارة قادرة على الإحاطة بمختلف الثقافات والتأثير فيها، وصفحات التاريخ أعدل شاهد عليه.

وها نحن نعرف للعالم العربى علما من أعلام الإسلام وعبقريا من عباقرته كان له تأثير كبير فى الحياة العقلية ونفوذ واسع فى الحركة الفلسفية فى الهند، ألا وهو الشيخ الإمام أحمد رضا خان الحنفى وهو جدير بهذا التعريف لاعتبارات شتى.

غير أن تعريف الإمام يحتاج إلى دفتر طويل أو موسوعة ضخمة، لما فى شخصيته من تنوع واستيعاب لكل جانب من جوانب الثقافة الإسلامية، وإمام تام فى جميع العلوم العقلية والنقلية.

وقد رأيت أن أوقع تعريف للشيخ الإمام لغير الناطقين بالأردية إنما يتم من خلال نقل تراثه العلمى الهائل الضخم، وترجمة مؤلفاته القيمة الفريدة، الدالة على جلالة شأن المؤلف وعلو كعبه فى العلوم والمعارف، إذ به معرفة الإمام بالإمام مباشرة بلا وساطة.

وانطلاقاً من هذه الفكرة الطيبة، قام الطلبة الهنود الدارسون بالأزهر الشريف بترجمة ثلاث رسائل للإمام إلى اللغة العربية فى العام الماضى، وطبعت باسم «القاديانية». من القاهرة، وها نحن نقوم بإبراز الناحية العقلية فى شخصية الإمام،

واستقلاله الفكرى والعقلى فى هذا العام رغم مزاحمة الشواغل والواجبات - رغبة فيما عند الله - عزَّ وجلَّ - وذلك من خلال ترجمة مؤلف قيم يسمى بـ «مقامع الحديد على خد المنطق الجديد» من اللغة الأردية إلى اللغة العربية العريضة. وقد ناقش المؤلف العلام - رحمه الله تعالى - فيها بعض العضلات الفكرية التى بلبلت عقول البعض، وقد سمينا هذه الترجمة المتواضعة «الفلسفة والإسلام».

ولا محيد عن ترجمة هذا التراث العلمى النقى الذى خلفته شخصية الإمام العبقريَّة الخلاقة، لما للتواصل الثقافى والتبادل العلمى بين الشعوب المختلفة العقلية من أهمية لدى أولى الألباب والنهى، وبصفة خاصة بين الشعوب الإسلامية، وبهذا يقوم دليل بين على سماحة الإسلام لاحتضان مختلف الثقافات والعقليات من العالم أجمع، وصلاحيته للتأثير فيها بالتوجيه والتصحيح.

وها نحن نكتب فى التعريف بهذه الشخصية الموسوعية الفذة لتجلية بعض الجوانب العقلية الممتعة. وإبراز آراءه الكلامية وإبتكاراته الفكرية الرائعة.

ولد هذا المولود المبارك ببلدة «بريلى»، بالهند، يوم الاثنين العاشر من شوال المعظم سنة ١٢٧٢ من الهجرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام، الموافق الرابع عشر من شهر يونيو سنة ١٨٥٦ الميلادية.

الخلفية الأسرية: لقد كانت أسرته أسرة علمية عريقة ذات مكانة عالية منذ قديم. ومما لا شك فيه أن البيئة الأسرية لها أثر فعال فى تكوين شخصية الطفل الذى يعيش فيها ويستشقى من جوها العاطر بالأخلاق الكريمة والعادات الحسنة فلا غرو بعد هذا أن يُصْبِحَ شيخنا عبقرى من عباقرة الإسلام.

لقد كان أبوه الشيخ نقى على خان (١٢٤٦هـ / ١٢٩٧هـ) من مشاهير العلماء فى ذلك العصر، كما كان متكلماً مفلحاً وعالماً ربانياً أطبقت شهرته أنحاء الهند، وقد أثرى المكتبات الإسلامية بتأليفات ممتعة ومؤلفات قيمة وهنا نذكر بعض مؤلفات الشيخ على سبيل المثال:

١- الكلام الأوضح فى تفسير المشرح.

- ٢- سرور القلوب فى ذكر المحبوب.
 - ٣- جواهر البيان فى أسرار الأركان.
 - ٤- أصول الرشاد لقمع مباني الفساد.
 - ٥- هداية البرية إلى الشريعة الأحمدية.
 - ٦- الرواية الروية فى الأخلاق النبوية.
 - ٧- لمعة التبراس فى آداب الأكل واللباس.
 - ٨- أحسن الوعاء لآداب الدعاء.
 - ٩- إذاقة الآثام لمانعى عمل المولد والقيام.
 - ١٠- الكواكب الزهراء فى فضائل العلم وآداب العلماء.
 - ١١- خير المخاطبة فى المحاسبة والمراقبة.
 - ١٢- هداية المشتاق إلى سيد الأنفس والآفاق.
 - ١٣- أجمل الفكر فى مباحث الذكر.
 - ١٤- عين المشاهدة لحسن المجاهدة.
 - ١٥- نهاية السعادة فى تحقيق الهمة والإرادة.
 - ١٦- أقوى الذريعة إلى تحقيق الطريق والشريعة.
- وغيرها من المؤلفات الغالية.
- وتوفى الشيخ محمد نقى على خان فى ليلة الجمعة الثلاثين من شهر ذى القعدة عام ١٢٩٧ للهجرة الموافق ١٨٨١ للميلاد.
- وقد فتح الشيخ أحمد رضا خان عينيه فى هذا الجو العلمى الطاهر، ونشأ فى بيت يشبه المكتبة أو الجامعة وبذلك نرى أنه لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره إلا وقد امتلك ناصية البيان وتسلم مقاليد الفتوى والإرشاد وشرع فى التأليف والتصنيف.
- تلقى العلوم الإسلامية والعربية عن والده وعن نخبة ممتازة من العلماء النابغين فى ذلك العصر، ولم يزل يوسع ثقافته ويعمق معرفته حتى أتقن خمسة وخمسين

علمًا وفتًا. ولم يترك علمًا أو فتًا إلا وقد أجاد وأتقن وألف فيه، بل أضفى فيه قواعد وأصولاً من عقلية المتفتحة المستقلة.

وقد ابتكر عشر قواعد لمعرفة جهة القبلة من أى قطر من أقطار الأرض، وقال: قواعدنا فى غاية الصحة حتى لو أزيلت الحجب لتجلت الكعبة بمرأى من العيون، إذا روعيت هذه الأصول مراعاة دقيقة. ونقل هذه القواعد تلميذه الوفى العلامة ظفر الدين أحمد البيهارى فى كتابه «توضيح التوقيت». فإن دل هذا على شىء فيدل على عقلية الخلاقة وتفكيره الحر المبدع.

وفوض إليه أبوه مسئولية الإفتاء والإرشاد لما رأى فيه من الذكاء المفرط والذاكرة المدهشة وإصابة رأى غير أن الشيخ الإمام لم يزل يعرض فتاويه على أبيه للتصويب والاستزادة من خبراته الفقهية ومعارفه الشرعية حتى توفاه الله - عز وجل - .

كان الشيخ أحمد رضا خان من أهل السنة والجماعة حنفى المذهب قادري الطريقة بايع على يد الشيخ آل رسول المارهورى سنة ١٢٩٥ هـ ونال منه الإجازة والخلافة فى السلاسل كلها كما نال الإجازة فى علوم الحديث والفقه وغيرها وكان شيخه من أشهر تلامذة فضيلة الشيخ العلامة عبد العزيز المحدث الدهولى صاحب كتاب «تحفة الاثنى عشرية» وغيرها من التصانيف العلية وكان الشيخ أحمد رضا خان شديد الاعتصام بالكتاب والسنة وسلف الأمة، راسخ الاتباع للرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وللصحابة والأئمة قوى الحب بالغ الإجلال لهم، حتى أن أدنى إساءة لأحدهم كانت تثير غيظه الدينية فما كان ليدها من فى الدين ويصالح مع المبطلين إلا أن يرتدعوا عن الأباطيل ويرجعوا إلى الحق المبين.

جهاده بالقلم: لقد رد على النصارى، والهندوس، والرافضة، والقاديانية، والديوبندية، والنياشرة، والمتصوفة المغالية وغيرها.

وكلما ظهرت بدعة قام بالرد عليها حتى أن كثيراً من المبطلين كان يمتنع من إعلان بدعته زمناً طويلاً مخافة من قلم الإمام أحمد رضا خان الحنفى، كما كان

شديد الإنكار على كل حرام ومنكر يظهر في المجتمع الإسلامي، وتصانيفه تزرخ وتندفق بالرد على البدع والمنكرات. التي راجت في عصره أو ظهرت قبل زمانه. ذكر بعض مصنفاته: بلغت مؤلفاته ألفاً ما بين صغير كبير، وذلك مع كونه صاحب اليد الطولى والنفس الطويل في الإيجاز وجمع المعاني الكثيرة في المباني القليلة.

وفي مقدمتها:

- ١- العطايا النبوية في الفتاوى الرضوية، في اثني عشر مجلداً كل مجلد يتجاوز خمس مائة صفحة كبيرة ويقارب ألف صفحة.
- ٢- جد الممتار على رد المختار لابن عابدين الشامي، في خمس مجلدات.
- ٣- الصمصام على مشكك في آية علوم الأرحام (في الرد على النصارى).
- ٤- كيفر كردار آريه (في الرد على الهنادك).
- ٥- السوء و العقاب على المسيح الكذاب.
- ٦- الجراز الديانى على المرتد القاديانى.
- ٧- المبين ختم النبيين^(١).
- ٨- جزى الله عدوه بإبائه ختم النبوة. (في الرد على منكرى ختم النبوة)^(٢).
- ٩- مقامع الحديد على خد المنطق الحديد^(٣).
- ١٠- الكلمة الملهمة، في الرد على الفلاسفة.
- ١١- الدولة المكية بالمادة الغيبية.
- ١٢- الفيوضات الملكية لمحب الدولة المكية.
- ١٣- الأدلة الطاعنة في آذان الملاعنة.

(١) وقد ترجمت هذه الرسائل الثلاثة من الأردية إلى اللغة العربية بجهود من الطلبة الهنود النشطاء حفظهم الله تعالى وطبعت من القاهرة، مصر.

(٢) وقد ترجم هذه الرسالة القيمة إلى اللغة العربية كل من الأخ الفاضل منظر الإسلام ونعمان الأعظمي حالاً وطبع باسم «محمد خاتم النبيين»، وصدر في دار البيان، القاهرة، مصر.

(٣) الرسالة التي بين أيديكم الآن.

- ١٤- رد الرفضة (فى الرد على الشيعة).
- ١٥- إكمال الطامة على شرك سوى بالأمور العامة.
- ١٦- الزبدة الزكية فى تحريم سجود التحية. «قدم فيها أربعين حديثًا ومائة وخمسين نصًا من كتب الفقه على حرمة سجود التعظيم لأحد من الخلق».
- ١٧- جمل النور فى نهى النساء عن القبور.
- ١٨- مروج النجا لخروج النساء.
- ١٩- جلى الصوت لنهى الدعوة أمام الموت.
- ٢٠- منير العين فى تقبيل الإيهامين.
- ٢١- اعتقاد الأحباب فى الجميل المصطفى والآل والأصحاب.
- ٢٢- حياة الموات فى بيان سماع الأموات.
- ٢٣- كنز الإيمان فى ترجمة القرآن.
- ٢٤- أنوار المنان فى توحيد القرآن.
- ٢٥- المقالة المسفرة عن أحكام البدعة المكفرة.
- ٢٦- سبحة السبوح عن عيب كذب مقبوح.
- ٢٧- فتاوى الحرمین برجف ندوة المين.
- ٢٨- بارقة تلوح من حقيقة الروح.
- ٢٩- تجلى اليقين بأن نبينا سيد المرسلين.
- ٣٠- صفائح اللجين بكون التصافح بكفى اليدين.
- ٣١- المعتمد المستند بناء لحجة الأبد.
- ٣٢- النيرة الوضیة فى شرح الجوهرة المضیئة.
- ٣٣- الأمن والعلی لناعتی المصطفى بدافع البلاء.
- ٣٤- أنوار الانتباه فى نداء يا رسول الله.
- ٣٥- الشرعة البهية فى تحديد الوصية.
- ٣٦- تنوير القندیل فى أوصاف المنديل.

- ٣٧- لمع الأحكام أن لا وضوء من الزكام.
- ٣٨- الأحكام والعلل فى أشكال الاحتلام والبلل.
- ٣٩- نبه القوم أن الوضوء من أى نوم.
- ٤٠- بركات السماء فى حكم إسراف الماء.
- ٤١- صيقل الرين عن أحكام مجاورة الحرمين.
- ٤٢- أجلى الإعلام أن الفتوى مطلقاً على قول الإمام.
- ٤٣- الظفر لقول زفر.
- ٤٤- الطلبة البديعة فى قول صدر الشريعة.
- ٤٥- الكشف شافياً حكم فونوغرافيا.
- ٤٦- عطايا القدير فى حكم التصوير.
- ٤٧- أطائب الصيب على أرض الطيب.
- ٤٨- حسام الحرمين على منحر الكفر والمين.
- ٤٩- الدلائل القاهرة على الكفرة النياشرة.
- وغيرها من المؤلفات الكثيرة النافعة.

وله حواش جلييلة وتعليقات أنيقة على كتب التفسير والحديث والفقه والسيرة والكلام وغيرها من العلوم والفنون وتمتاز هوامشه بأنها فيض خاطره وما كان يفرغ لكتابتها كغيره من المحشين الذين إذا أرادوا كتابة حاشية على كتاب جمعوا حولهم ذخائر من كتب وشروح وحواش وتعليقات وأخذوا منها ونقلوا عنها ما أحبوا حتى تتكون حاشية ضخمة وهذا أيضاً عمل نافع له قدره غير أن العلامة أحمد رضا خان لم يكن كذلك، بل كان إذا طالع كتاباً ورأى مبحثاً عويصاً أو زللاً من صاحب الكتاب أو مسألة تحتاج إلى زيادة الكشف والإيضاح أو موضعاً اختلفت فيه الأفكار والأقلام كتب هناك جملاً يسيرة تنحل بها العقد ويندفع الزلل وتنكشف العلل ويتجلى الحق الأبلج.

إن الشيخ الإمام عايش القرآن والسنة بفكره وروحه وخالطهما بعقله وشعوره، وترجمهما بعمله وفعله ترجمة صادقة وصبغ قلبه وقالبه روحه وجسده بالصبغة الربانية حتى امتزجت معانى القرآن والسنة بلحمه ودمه. كما أحاط بكل ما كان يُموج به ذلك العصر من مخاطر وتهديدات تحيط بالإسلام والمسلمين وأدرك تلك الدسائس والمخططات التي كانت تنسج حول مسح الهوية الإسلامية وإبعاد المسلمين عن القرآن وصاحب القرآن وطالع المجتمع الهندي بترو تام كما يطالع الطبيب الخاذاق المريض لمعالجته، ورحب بجميع التحديات بكل شجاعة وبسالة؛ فحرص حرصاً شديداً ناشئاً من الإيمان والعقيدة ونشط للحفاظ على الميزة الإسلامية على نقاءها وصفاءها من المؤثرات الأجنبية والهجمات الخارجية. فلم يكن مؤمن كهذا ليخذل الملامح الإسلامية لتذوب فى بوتقة تلك الموجات العارمة من مثات التقاليد والعادات الخرافية فى بلد يزخر بالأديان والمعتقدات ويموج بالخرافات والأباطيل.

وقد عرض الإمام كل نشاط من نشاطات المجتمع وكل حركة من حركاته على محك القرآن والسنة، فما كانت منها صالحة نافعة ومنسجمة مع طبيعة القرآن والسنة أقرها وما كانت سيئة ضارة مضادة لروح الحنيفية السمحاء بذل كل ما فى وسعه لإزالتها وتطهير المجتمع الإسلامى منها. ومن أضرارها، وحذر المسلمين من عواقبها الوخيمة فى الدنيا والآخرة بأسلوب حكيم ينبض بروح العقيدة الصادقة ونور الإيمان الوضاء، كما يلاحظ ذلك بوضوح من أسماء الكتب التى عرضنا بعضها منها فى السطور السابقة وقد رأيت أنها أحاطت كل جانب من جوانب الشريعة والعقيدة والسلوك.

وقد آن الأوان أن نقدم بعض الشواهد والأمثلة على ما قلنا من خلال مؤلفات الإمام؛ لتؤكد من عظمة هذا المجاهد الباسل الجليل.

تطهير المجتمع من البدعة الاعتقادية كان قد نبت فى المجتمع الهندي

كالطقيليات أناس تلاعبوا بأحكام الشريعة الإسلامية واستهانوا بعظمتها وانحرفوا عن الجادة وحادوا عن الصراط المستقيم، ففرقوا بين الشريعة والطريقة وفضلوا الطريقة على الشريعة، فوجه إلى شيخنا الإمام استفتاء في هذه القضية حيث كان مرجعاً موثقاً به في أمور الدين.

وكان هؤلاء المنحرفون قد استندوا إلى بعض الشبهات التي زينها الشيطان لهم فقالوا: إنما الشريعة عبارة عن بعض الفرائض، والواجبات وشيء من السنن والمستحبات والحلال والحرام، أمثال الوضوء والصلاة وغيرها، أما الطريقة فعبارة عن الوصول إلى الله - عز وجل - وفيها تنكشف حقائق العبادات وفيها تتجلى أسرار الصلاة والصيام وخفاياها وقالوا إن الطريقة بحر لا ساحل له والشريعة بالنسبة إليها قطرة صغيرة، والطريقة هي الوراثة الحقيقية والنيابة الكاملة للأنبياء وهي التي بعث من أجلها الأنبياء والرسل، وعلماء الظواهر هم أهل القشور لا يصلحون بحال من الأحوال لعظمة الخلافة النبوية.

كما لا يسوغ إطلاق «العلماء الربانيين» عليهم بخلاف أصحاب الطرق ويجب على الناس أن يحذروا من خداع هؤلاء العلماء المزعومين فإنهم شياطين بل حجب واستتار دون الوصول إلى الله - عز وجل -.

هذه هي الشبهات التي استند إليها بعض من فضل الطريقة على الشريعة وسنرى في السطور التالية. فوران غيرة الشيخ الدينية وغلbian حماسه الإيمانية على هذه البدعة الفكرية والانحراف اعقدى الخطير، مع ملاحظة أنه أحد مشائخ الطريقة القادرية في الهند، ونجد أن الشيخ الإمام لم يكن ليصغى إلى هذه الشطحات المنفلتة التي تصادم مع روح الشريعة الإسلامية وطبيعة الحنيفية السمحاء. وأنه كان شديد التمسك والاعتصام بأدلة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. قال الشيخ ردًا عليهم:

إن وصفهم الشريعة المطهرة بأنها عبارة عن بعض الأحكام مثل الفرض والواجب والحلال والحرام، ناشئ من الجهل والعمى ودال على الغي والهوى، وهو إلحاد صريح وضلال مبين.

إنما الشريعة عبارة عن مجموعة كاملة من الأحكام الإلهية التى تشمل الجسم والروح، القلب والقالب، والظاهر والباطن، وهو اسم لجملة العلوم الربانية والمعارف اللامتناهية والطريقة والمعرفة جزء من تلك المنظومة المتكاملة الشاملة، ومن هنا أجمع العلماء قاطبة على حتمية العرض لجميع معارف الأولياء والصالحين ومكاشفاتهم وحقائقهم على الشريعة الإسلامية المطهرة، فما وافقت منها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة فهى مقبولة وإلا مرفوضة جملة وتفصيلاً.

وعلى هذا فالشريعة هى الأصل وهى المحك والميزان بها العبرة وعليها الاعتماد، والشريعة لغة تطلق على الطريق وشريعة محمد ﷺ تعنى طريقة المصطفى عليه التحية والثناء، ولا شك أنها عامة ومطلقة فلا يعقل قصرها على بعض الأحكام الخاصة بالأجسام وهذه هى الطريقة التى يجب على المسلم أن يسأل المولى - عز وجل - السلوك والاستقامة والثبات عليها فى الصلوات الخمس، ألا ترى أن دعاء، إهدنا الصراط المستقيم يتكرر فى الصلوات كلها.

ويقول المولى - عز وجل - إن ربي على صراط مستقيم، وهذه هى الطريقة التى لو حاد عنها أحد، ضل وغوي، قال المولى - عز وجل - ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

انظر كيف صرح القرآن العظيم بوضوح أن الشريعة هى وحدها الكفيلة بالإيصال إلى المولى - عز وجل - وكل طريق سواها فمبعد عن المولى - عز وجل - وقولهم إن الطريقة عبارة عن الإيصال أو الوصول إلى الله - عز وجل - لا يعدو أن يكون جنوناً أو جهالة، إذ لا يخفى على عامة الناس فضلاً عن غيرهم أن الطريقة والطريق تعنى السبيل الذى يؤدى إلى غيره وليس معناه الوصول أو البلوغ فى أية لغة.

فالطريقة لو كانت غير الشريعة فلن تكون مؤدية إلى المولى - عز وجل - بل تؤدي إلى الشيطان الرجيم، ولا تصل إلى الجنة بل توصل إلى النار، كما شهد بذلك القرآن العظيم حيث رفض كل السبل والطرق غير الشريعة الإسلامية.

ومن هنا يلزم أن تكون الطريقة هي الشريعة فالطريقة عبارة عن جزء هام من الشريعة الغراء لا يقبل الانفكاك عنها في حال من الأحوال ومن فضل الطريقة عن الشريعة فقد فصلها وقطعها عن طريق الله - عز وجل - وربطها بطرق الشياطين. إن الطريقة الحقّة ليست من طرق الشياطين في شيء وبالتالي هي طريق الله - عز وجل - ولا يغيبن عنك أن كل ما ينكشف في الطريقة على العبد إنما ينكشف ببركة الشريعة واتباعها، ألا ترى أن الرهبان، والمتبتلين والزهاد من الكفار والمشرّكين قد تنكشف عليهم أشياء كثيرة غير أن ذلك لا ينفعهم بشيء في الآخرة بل هو الذي سيوصلهم إلى النار ويقذفهم في سقر.

عجباً لمن قال إن الشريعة قطرة والطريقة بحر، وهل يصدر هذا إلا من مجنون أو معتوه سمع عن سعة البحر وعمقه ولم يدر المسكين من أين جاءت هذه السعة في البحر، ولا يخفى على العاقل أن سعة البحر بسعة المنبع وغزارته فلو لم تكن السعة في المنبع والصمدر لما كانت تلك السعة في البحر فالشريعة بمنابة المنبع أو العين والطريقة كبحر يستمد بقاءه منه بل هذا المثال أيضاً غير دقيق كما ينبغي؛ لأن البحر قد يستقل عن المنبع والعين في سقى المزارع عند المرور بها، وقد يستغنى المنتفع به عن المنبع والعين بخلاف منبع الشريعة الغراء فإن البحر المستمد منها لا يستغنى عنها ولو للحظة واحدة.

هذه نبذة يسيرة من تلك الرسالة القيمة التي ألفها المؤلف العلامة في دحض هذه الشبهة واستئصالها وسماها «مقال عرفاء بإعزاز شرع وعلماء».

وبذل الشيخ الإمام مجهودات مشكورة في محو تلك البدعة النيشرية التي نصت رأسها في عصر المؤلف العلامة، تلك الفتنة الصماء والظلمة الدهماء، التي

حاولت نزع الإسلام من قلوب المسلمين بحيل كثيرة من المكر والخداع والتستر
بستار الإسلام، كما كان شأن المستعمرين في جميع البلاد المستعمرة حيث كانوا
يستعملون المسلمين المزعومين لزعة الإسلام في نفوس المسلمين فكتب الشيخ
الإمام رسالة بين فيها أحوال هذه الطائفة الضالة وأحكامها في ضوء القرآن الكريم
والسنة النبوية المطهرة، ثم أرسل إلى علماء وفقهاء الحرمين الشريفين. للتصديق
والتوثيق لما كان يكن الشيخ تجاههم من ثقة وأولوية في الأمور الدينية والشرعية
ورد أيضاً على الطوائف المنحرفة الأخرى التي عاصرتة. وها نحن نفسخ المجال
لتقرأ ذلك كله بقلم المؤلف الرصين. قال:

ولنعد بعض من يوجد في أعصارنا وأمصارنا من هؤلاء الأشقياء (أى الذين
خرجوا من الإسلام بإنكارهم ضروريات الدين) فإن الفتن داهمة والظلم متراكمة،
والزمان كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً ويمسى
مؤمناً ويصبح كافراً، والعباد بالله تعالى، فيجب التنبه على كفر الكافرين المتسترين
باسم الإسلام، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

الرد على الفلاسفة قام الشيخ الإمام بفريضة الرد على الفلسفة القديمة
والجديدة وحطم قصورهما الشامخة وزلزل أركانها التي كانت بمثابة المسلمات
المقررات عندهم.

وألّف في ذلك رسالة عظيمة سميت بـ «الكلمة الملهمّة» ، وقد اعتبرها بعض
أعلام الهند «تهافت الفلاسفة» في العصر الجديد، وهى جديرة بذلك؛ لأهمية
مضمون الكتاب وقيمتة في هذا الفن.

لقد كان الشيخ طويل النفس قوى الشكيمة فى مناقشة الفلاسفة ومجادلتهم
حتى تراه يضيق الخناق على أعتى الفلاسفة وأعندهم ويسد أمامهم كل الطرق
والمنافذ ليلجئهم إلى الاقتناع والاعتراف بالحق والتنازل عن الباطل. وكل ذلك
بنفس المناهج وبنفس المبادئ التي آمنوا بها واطمئنوا إليها.

فإليك جانباً من هذا الرد الرائع الممتع.

الحمد لله إن الأفلاك، والكواكب، وحركاتها، ودوراتها قد أكدت تأكيداً يقطع دابر كل شك وريب، أن الخالق جل وعلا مختار مطلق، وألقت أفواه الفلاسفة كذلك حجراً بأيديهم. لأن الفلسفة تدعى.

- إن الأفلاك بسائط، وكل فلك له طبيعة واحدة ومادة واحدة وإن كانت الأفلاك جميعها مختلفة الطبائع ومتباينة المواد فيما بينها.. كما تدعى.

- إن الطبيعة الواحدة في المادة الواحدة لا تفعل إلا فعلاً واحداً على نسق واحد، ووتيرة واحدة، ولا يمكن التفاوت فيها في حال من الأحوال.

ولذلك كان الشكل الطبيعي كروياً لكل بسيط لأن الشكل الكروي هو الذي يكون على نسق واحد بخلاف المثلث والمربع وغيرهما فإنهما لا يخلوان عن الخط والسطح والنقطة فلم يكن على نسق واحد.. وكذلك تدعى الفلسفة .

- إن الفاعل لا يتأتى منه الترجيح بين المتساوين لأن نسبته إليهما سواسية والترجيح لأحدهما مع استواء النسبة ترجيح بلا مرجح وهو باطل.

وهنا نود أن نذكر الفلسفة السفيهية هذه الدعاوى الثلاث وننبهها إلى مسلماتها التي أسلفتها آنفاً، ثم نتساءل، أين المخرج؟ وأين السبيل؟ وأين المبرر؟ لذلك التباين والاختلاف الذين اعترفتم بهما في الأفلاك والكواكب؟

وها نحن نذكر بادئ ذي بدء كلمات وجيزة في أشكال كل فلك وحركاته وجهاته وأجزاءه، وحركات الأجزاء وجهاتها ثم نأتي بإيرادتنا عليه.

فالأفلاك بصفة عامة كرات مجوفة فيها سطحيان أحدهما محدب والآخر مقعر، والأفلاك بعضها في جوف بعض، وفلك القمر آخرها وأسفلها، وفي بطنه تحتل العناصر الأربعة الفلك الأطلس، وهو أعلى الأفلاك جميعاً وأسرعها، يدور على مركز العالم من المشرق إلى المغرب، ويتم دورته في يوم وليلة أي ٢٤ ساعة إلا ثلاث دقائق ٥٦ ثانية. القطب الشمالي والجنوبي قطبان له. ومعدل النهار منطقتة

نرى فى سطحها يقع خط الاستواء. وهذا الفلك يدير جميع الأفلاك التى تحته مع حركته وطلوع جميع الكواكب وغروبها مرتبطان بحركته، ولا يوجد فيه أى كوكب أو جزء.

أقول: إن قولهم «لا يوجد فيه أى كوكب» مجازفة عشواء بل أقصى ما يمكن أن يقال إننا لا نعلم؛ لأنه يمكن أن تكون فيه بعض الكواكب ولا ترى لنا بسبب شدة البعد بل من المحتمل أن تكون بعض هذه الكواكب التى نراها نحن، فى الفلك الأعظم أو وراء المجرة أو الشرة أو كف الخصيب، بل كل موضع يبدو فيه الأشكال السحابية يحتمل احتمالاً صريحاً أن تكون هذه الكواكب فوق جميع الثوابت، ولكن لا تتبين أجرامها بسبب تقاربها فيما بينها وبعدها عنا بعداً شديداً وبذلك تبدو مثل السحاب الأبيض كأنه سطح لامع.

فلك الثوابت، مركز فلك الثوابت ومركز الفلك الأطلس متحدان غير أن قطبه يختلف عن قطبى العالم ب ٢٣ درجة و ٢٧ دقيقة وحركته من المغرب إلى المشرق (عكس حركة الفلك الأطلس). ولا تتم دورته فى مدة اثنين وعشرين ألف عام، وزعم المتقدمون أنه يكمل حركته فى ستة وثلاثين ألف عام، وجميع الكواكب الثوابت المتباينة الأحجام المختلفة الألوان توجد فيه، ومثلثات السموات السبع من المراكز والأقطاب والجهات والحركات والمقادير والسرعة متساوية، ولذلك تسمى بالمثلثات لأنها تماثل فلك البروج فى هذه الأمور، ولا توجد فيه أجزاء سوى هذه الكواكب الثوابت.

أقول، أجل، توجد الآلاف فضلاً عن الواحد. وحركات الثوابت متباينة فيما بينها كما ذكر فى زيج الأجد، وقد ضبطت فيه حركات الثمانين منها، فبعضها تقطع مسافة درجة واحدة فى ثلاث وستين سنة كعقوب الرامى وبعضها تقطع درجة واحدة فى أربع وستين سنة كالنسر الواقع، وبعضها الأخرى تقطع درجة واحدة فى مدة خمس وستين سنة، كركبة الرامى كما تقطع الأخرى هذه الدرجة

فى ستة وستين عاما، كالتسهيل اليمانى، والنسر الطائر وحدى الفرقد، وبعضها فى سبعة وستين عاما كنير الفلكة حتى يبلغ هذا الاختلاف إلى اثنين وثمانين سنة. فى درجة واحدة فإذا كان هذا التفاوت فى درجة واحدة بتسع عشرة سنة ففى الدورة الكاملة يبلغ هذا التفاوت إلى ست آلاف سنة تقريباً فإن دل هذا فإنه يدل على اختلاف التداوير والحركات.

وكذلك تختلف التفاصيل فى فلك زحل، والمشتري، والمريخ، والشمس، والزهرة والعطارد، والقمر.

وقد أورد المؤلف العلام اثنين وثلاثين مؤاخذه قوية وقضاً محكماً على مذاهب الفلاسفة مستعيناً فى ذلك بذكاء المفرط وذهنه الوقاد وإليكم خلاصة المؤاخذه الحادية والثلاثين والثانية والثلاثين أولاً :

أ- من خصص التداوير فى الحوامل بالموضع المعين من الفلك مع أن كل نقطة من نقاط الفلك تحتل ذلك وتستوى نسبة جميعها إليها، فمن أين نشأت هذه الأجزاء المتباينة من الطبيعة الواحدة فى المادة الواحدة؟ والحل أيسر وأسهل، غير أن الجحود والإنكار والعناد الأعمى لا دواء لها.

ب- هذا التباين كما يمكن أن يحدث من القابل يمكن كذلك أن يحدث من الفاعل أيضاً، ولا يمكن ذلك من القابل فيما نحن فيه إذ القابل هنا مادة بسيطة فما المانع أن يكون هذا التباين من الفاعل، (ذكره الطوسى).

حقاً إن الاضطراب والعجز ليؤديان إلى مثل هذا التناقض البين واللف والدوران والحيل العقيمة. ونسأله هنا وحق لنا التساءل هل الفاعل يتصرف حسب استعداد القابل وصلاحيته، أم يمشى على هواه واستبداده، والأول مفقود والثانى هو المقصود.

وقد لاحظت كيف تداعت لبنات الفلسفة متساقطة بعضها فوق بعض وانهارت قصورها الشامخة من أساسها وهى خاوية على عروشها.

وبذلك لم يستطع الفيلسوف الجونفورى أن يتمالك نفسه على حل الطوسى فانقلبت منه هذه الجملة، قد بنى قصرًا وهدم مصرًا وبطل الدليل وانثلمت أصول كثيرة.

جـ- إن هذا التباين يمكن تفسيره بأن الصور النوعية نزلت على بعض المواضع من الأفلاك على شكل متفرق، ولهذا تكونت الكواكب والتداوير والحوامل والخوارج على ألوان شتى من جرم الفلك، فمغارات الأفلاك وأجواف التداوير، قد حدثت بأنفسها، ولما كانت الحوامل والخوارج على غير المركز فحدثت تغيرات المتممات تلقائيًا.

وواضح أن المعضلة لم تنجل بعد، وذلك أولاً، أننا قد افترضنا أن المادة ليست فيها استعدادات متباينة، فمن أين انطبعت هذه الصور المتنوعة فى أنحاء من الفلك؟.. ومن أين فى الحوامل هذه المغارة التى فيها هذه التداوير؟.. ومن أين فى التداوير هذا الجوف الذى فيه الكواكب؟.. ومن أين نزلت هذه الأفعال المتباينة. هذه هى العضلات والعويصات التى حار فى حلها الحائرون، وإن المحل أيسر بكثير من اللف والدوران والتحايلات الملتوية كما سترى.

لقد ذكر فى «المواقف» وغيرها أربعة حلول لهذه الأسئلة.

الأول: وما أروع هذا الحل، وما أبدعه حيث يكشف عن عوار الفلسفة ومعانيها إذ يقولون، إن الحوامل والتداوير، والثوابت والسيارات والشمس والقمر إنما هى أوهام افتراضية، وأحلام خيالية لا وجود لشيء منها فى الواقع وحقيقة الأمر، وإنما السماء صفحة ملساء لا تدوير فيها ولا كوكب.

انظر: هل هناك حل أفضل من هذا يا للعجب، لقد نقل هذا الحل الركيك المتفلسف الجونفورى ثم علق عليه قائلًا، لا أزيد على الحكاية، أى انظر ظاهرة ولا تبحث عن باطنه.

هل رأيتم عنادًا كهذا الذى يرضى بكل هذا السفه وهذه السفسطة ولا يرضى

بالإيمان بالخالق المختار. وهذا الحل الأول هو الحل الحقيقي الذى رأيت حاله، أما بقية الحلول الثلاثة فإنها تستلزم الإيمان بالخالق المختار - الذى يهربون منه ما أمكن - بطريق مباشر أو غير مباشر.

ثانيًا: أقول ومن خص كل قطعة من المواد المتشابهة للصور النوعية ولم لم تنطبع كل صورة على كل قطعة، وقد يكرر هنا نفس الرد المار بك آنفًا أى كون ذلك من الفاعل كما ذكره السيد الشريف ثم يتوجه إليك نفس النقض الذى أسلفناه فى (ب) هل الفاعل يتصرف حسب استعداد القابل وصلاحيته أم حسب استبداده وهواه).

إن العلامة السيد الشريف مسلم من أهل السنة والجماعة وبذلك نراه قد اطمئن قلبه بهذا الحل وسطره قلمه، والطوسى أيضًا ادعى الإسلام، وقد سبق به قلمه ولم يخطر بباله أن هذا الحل يهدم بنيان الفلسفة من أساسه غير أن الفلاسفة والجونوفرى قد وقع هذا الحل على رءوسهم كصاعقة، وبذلك قال الجونوفورى الفيلسوف، قد بنى قصرًا وهدم مصرًا وبطل الدليل وانثلمت أصول كثيرة.

د - وقد قام الجونوفورى بنقض هذه الحلول بأسرها، واعترف بأن هذه الإيرادات قوية للغاية ومعقدة جدًا لا تنحل، وأن الأذهان حائرة فى حلها وكلمها أراد الفلاسفة حل هذه المضلات ازدادت معاقدها، حتى عجزوا عن آخرهم وهنا تتسائل الجونوفورى، إذا كان الفلاسفة قد عجزوا عن حل هذه المعضلة، فأنت ابن الفلسفة البار، ومحرز قصبات السبق فى هذا المضمار، وللفلسفة فيك أمل كبير، فلتدل أنت بدلوك ولتنقذها من انهيار، غير أننا نجد أيضًا عاجزًا مسكينًا، معترفًا بعجزه وضيق حيلته، واقعًا فى تناقض سافر، حيث قال، إن الفلكيات كرات كثيرة من مواد مختلفة، وقد اقتضت عناية الخالق بأن تكون بعضها فى جوف بعض وبعضها فى ثخن البعض كما اقتضت العناية الإلهية، أن يكون مركز البعض الذى فى الثخن شاملًا للمحيط ومركز البعض الآخر لا يكون شاملًا للمحيط، ومن هنا

حدثت هذه المغارات، وإذا افترضنا أن العناية الإلهية لم تقتضى ذلك، لكانت الأفلاك كلها غير مجوفة مثل الكرة الأرضية، فكما أن كونها جوفاء لم يؤد إلى تكثر فى قوة الفعل.

فكذلك هذه المغارات والتداوير لا تؤدى إلى تكثر الفعل، إنما اللازم الذى لا يتخلف أبداً أن يكون السطح كروياً فحسب (أعم من أن يكون فيها مغارات وتداوير) وعدم كروية السطح هو الذى يؤدى إلى تكثير الفعل وليس مراد القوم - الفلاسفة - من بساطة الفلك أن لا تكون فيه الكواكب والأجزاء (فلا منافاة بين بساطة الفلك وكونه ذا أجزاء وكواكب) أو مرادهم من بساطة الفلك أنه لا يقبل الكسر والانكسار والمزاج كما يقبل ذلك كله المواليد الثلاثة - المعادن والنباتات والحيوانات - أو مرادهم من بساطة الفلك بساطة أجزائه الفلك من الكواكب والحوامل والخواج والتداوير والتميمات، أى كل جزء من هذه الأجزاء بسيطة.

أقول، هل لاحظت حيل العجز المضحكة وأفاعيل الاضطراب النادرة وما أصدق قول القائل - الغريق يتشبث بثمامة - أولاً، إن جميع الكتب المعنية بهذا الفن ناطقة بصوت مدو، أن الأفلاك بسائط، وها نحن نرى أن بساطة الفلك قد آن وأنها وحن رجيلها على لسان هذا الفيلسوف العبقري، ألا ترى أنه قال: إن الفلك ليس بسيطاً إنما البسيطة أجزاءه.

ثانياً: وإن لم تسلم المزاج فقد سلمت الأجزاء، ونستفسر هنا، هل طبيعة الأجزاء متحدة أم متباينة، على الأول من أين هذا الاختلاف وعلى الثانى أين البساطة؟..

ثالثاً: لقد ذكر أن كون الفلك ذا جوف لا يؤدى إلى تكثر الفعل، كأنه من المسلمات المقررة، غير أنه ليس كذلك حيث إنه يتوجه إليه نفس النقض، وقد اعترف الجونفورى بأن اقتفاء الطبيعة عدم الجوف، وبهذا قد قوى إيرادنا وازداد به استحكاماً.

رابعاً: أجل! إن العناية الإلهية فعلت ما فعلت غير أن اختلاف العنايات لا يزال معضلة، فلم تباينت نسبة العنايات إلى الأجزاء ثم تعيين الأجزاء والمقادير والمواضع وغيرها إما أن يكون بحسب استعداد القابل أم بحسب استبداد الفاعل وهواه، والأول مستحيل، فمن أين تباين الاستعداد في المادة البسيطة وعلى الثانى يجب الإيمان بالخالق المختار.

اتهمت أن الطوسي قد هدم مصرًا، فهل سلمت منك لبنة من لبنات الفلسفة فقد لعبت نفس اللعبة وقد صدق عليك تمامًا، كرّ إلى منه فرّ.

سبحان الله، انظر كيف يفرون من الإيمان بالخالق المختار، حتى كادت تنقطع أنفاس هؤلاء فى حل هذه الإيرادات وعجزوا عن آخرهم، وتفوهوا بما لا ينبغى أن يصدر منهم من الأباطيل والمضحكات ولم يبق أمامهم فى مقتضى العقل خيار سوى الإيمان بالخالق المختار، وقد آمنت قلوبهم وانقلت من ألسنتهم، غير أنهم لا يعترفون بذلك لثلا ينهار قصر الفلسفة جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً.

خامساً: هذا هو الجوفورى الذى قال فى فصل الحيز من كتابه الظلمة النازغة المسمى ظلماً، «ب الشمس البازغة»، وجود الجسم بدون فاعل وإن كان غير ممكن لكن نسبة الفاعل إلى جميع الأحياز على السواء فلا يمكن تعيين الحيز منه ما لم يكن لطبيعة الجسم خصوصية معه.

إذا لم يمكن تعيين الحيز من الفاعل ما لم يكن لطبيعة الجسم خصوصية معه فمن أين جاءت هذه التعيينات المتعددة بغير خصوصية فى الطبيعة؟..

هذه قطرة من ذلك البحر المواج بالدرر الفريدة والجواهر الكريمة التى النقطننا منها بعضاً معدوداً حسب استطاعتنا وفهمنا للقارئ الكريم وإلا فكل مؤلف من مؤلفات الإمام يزخر بأمثال هذه الابتكارات الإيمانية الرائعة التى تملأ القلوب والوجدان نوراً وبهاءً والعقول والمشاعر ضياءً وسناءً.

وربما يعتقد من يرى رد الإمام على الفلسفة بهذا الأسلوب الرصين وذلك المنهج القوى أنه كان مدمناً للعلوم الفلسفية ليل نهار، والتفلسف كان شغله الشاغل، غير أن الحقيقة بخلاف ذلك تماماً كما نجد ذلك في كلماته حيث قال: لقد قرأت بعض الكتب في الفلسفة القديمة بين يدي والدي الماجد - قدس سره الشريف - حسب المقرر في المنهج النظامي - في الهند - ثم قمت بشرح بعض الدروس منها للطلبة أياماً قلائل لكن نفسى كانت نافرة من أول يوم من ضلالاتها وظلماتها.

وقد مضى خمس وأربعون سنة ولم ألتفت إلى الفلسفة ولم أفتح أى كتاب فى هذا الفن، ولقد وفقت بجاء المصطفى ﷺ أن أقوم بهذه الخدمة المتواضعة، خدمة الرد على الفلسفتين والكشف عن قباحتهما وشناعتهما وحماتهما وضلالتهما للإخوة المسلمين كما تحدث عن نعمة الله - عز وجل - عليه، وقال فى موضع آخر: إن الحديث عن هذه المسألة الدينية المهمة من مميزات كتابى هذا وخصائصه ولله الحمد وعامة مباحث هذا الكتاب وتحقيقاته مما أفاض المولى القدير - عز وجل - على قلب الفقير سوى بعض الأبحاث المعدودة القليلة وهذا ليس خاصاً بهذا الكتاب فحسب بل عامة كتب الفقه زاخرة بالتحقيقات النادرة والتدقيقات الرائعة.

إمامه بعلم الهيئته قد أرسل فضيلة الشيخ العلامة ظفر الدين اليهاري من أبر وأحب تلاميذ الشيخ الإمام إلى دار الإفتاء بمقر الشيخ الإمام عموداً مقطوعاً من الصفحة الثانية لصحيفة «إكسبريس» الإنجليزية الصادرة فى ١٨ أكتوبر عام ١٩١٩م لينظر فيها الإمام ويقرأ ذلك التكهن المذهل الذى أشاعه الخبير بالفلكيات ألبرت الأمريكى، فترجمت تلك المقطوعة إلى اللغة الأردية، وكانت خلاصته كما تلى:

إن سيارة عطارد، والمريخ، والزهرة، والمشتري، وزحل، ونبتون، ستقترن فى ١٧ من شهر ديسمبر، وتجتمع هذه السيارات الستة التى تفوق قوتها قوة جميع

السيارات عليا لإطلاق، على بعد ٢٦ درجة من الشمس وتجذبها إليها على خطوط متوازية، ولا تزال تقابلها شيئاً فشيئاً حتى تتم المقابلة على الصورة الكاملة. ويأتى معها الكوكب يورينس، ولم يحدث مثل هذا الاجتماع فى تاريخ فن الهيئة إلى الآن. وستنشأ بذلك موجة عامة وتيار مغناطيسى قوى، من جرم كوكب يورينس والسيارات الستة هذه، فتشقب فى وجه الشمس كرمح كبير، وإن قران هذه السيارات الستة العظيمة الذى لم يعهد مثله منذ ألفى قرن، سيعرض الولالات المتحدة بعواصف هوجاء، مدهشة ويدمرها تماماً.

وهذا الكلف سيظهر فى وجه الشمس فى ١٧ من ديسمبر ويرى مكشوقاً للعيون بلا معونة تلسكوب، ومثل هذا الكلف لم يعهد فى حين من الأحيان وهذه البقعة التى ستحدث فى جانب من الشمس ستؤدى إلى هزات عنيفة فى الكرة الهوائية وبالتالي تحدث عواصف شديدة والرجد المخيف، والمطر الغزير، والزلازل والهزات، ولا يستتب الهدوء والسكون فى كرة الأرض إلا بعد أسابيع.

ولقد أحدثت هذه الإشاعة الكاذبة غير العلمية هرجاً ومرجاً فى المجتمع الهندى وأوقعت الناس فى قلق عنيف وذعر فظيع، غير أن الشيخ الإمام قد قام برد علمى متين على هذه الشائعة التى نشرها البروفيسور ألبرت، فهدأت الأحوال وقرت العيون بتحقيقات المؤلف العلام.

ونشر هذا التحقيق الممتع فى مجلة «الرضا» الشهرية فى عدد صفر وربيع الأول عام ١٣٤٨ الموافق ١٩١٩ هـ وكانت قد نالت هذه المقالة العلمية قبولا عظيماً فى جميع الأوساط، ويتألف هذا الرد من سبعة عشر دليلاً قوياً.

واستفاد الإمام فى ذلك بجميع ما كتب كل من الراهب شيز والعلامة قطب الدين الشيرازى، وابن ماجة الأندلسى، وهرشل الأول، وهرشل الثانى، وهمس كوسكى، وارجر لانك من خبرات وتجارب وأحاط بجميع تجارب ومشاهدات الماضى والحال، كما استعان بذكاءه الحاد وفكره المستنير، وقد أثبت السابع عشر

من شهر ديسمبر كذب تكهن ألبرت وقد أصاب ف ياجتهاده - بفضل الله تعالى -
الشيخ الإمام.

فإليك خلاصة دليله الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر.

الخامس عشر، لا حاجة لوقوع هذا الكلف في الشمس إلى الاقتران والاجتماع
فإن السيارات لم تزل على مقربة من الشمس بل تجذبها دائماً كما زعمتم فعلى
زعمكم يجب أن تشتعل النيران بصفة دائمة بلا توقف، ولعل قائل يقول، بأن
السيارات لا تستطيع أن تؤثر في جرم الشمس تأثيراً مركزاً إذا كانت متباعدة
بخلاف القران فإنه في هذه الحالة تتركز قوى الجميع على موضع واحد بشكل
موحد، وهذا ما يؤدي إلى اشتعال النيران وشبوب الحريق.

سلمنا، غير أن آثار السيارات لا تكون مركزة على موضع واحد من جرم
الشمس لأنها منتشرة على مسافة ٢٦ درجة ٢٣ دقيقة فتقع آثار السيارات متفرقة
منتشرة لا مركزة، فلم قلت إن الشمس تتضرر، هذه المسافة التي زعمتموها قصيرة،
ليست بقصيرة في الواقع، فإننا لو فرضنا خطأ مبتدأ من مركز الشمس ماراً بمراكز
السيارات لبلغ طول الخط إلى أكثر من بليون ميل؛ لأن جرم الشمس يبعد عن
كوكب نبتون ثلاثين ضعفاً من بعد الشمس عن الأرض فلنطرح الزيادة على
الثلاثين ولنأخذ الثلاثين فقط فقد بلغ على بعد ما بين نبتون والشمس إلى بليونين
وسبع مائة وسبعة وثمانين مليون ميل، ومسافة قطر المدار، خمسة بلايين وخمس
مائة وأربعة وسبعون مليون ميل، ومسافة المحيط أكثر من سبعين بليوناً وخمس
مائة ومليونين، ومائتي ألف ميل، ولا شك أن ٢٦ درجة و٢٣ دقيقة ستصبح هنا
بليون ميل ومائتي مليون، وثلاثة وثمانين مليوناً وثلاث مائة ألف وستة وأربعين
ألف ميل.

فكيف يسوغ في عقل عاقل تأثير نبتون بشكل موحد في جرم الشمس مع انتشار
قوته في هذه المسافة المذهلة ولعلك تلاحظ أننا لم نعتبر اختلاف العرض بعد.

بل لو فرضنا اجتماع هذه السيارات على أقرب فلك إلى الشمس وهو عطارد فإنه بعد هذا الفرض الجدلى أيضاً تبعد الشمس عن عطارد ثلاثين مليوناً وستة ملايين ميل تقريباً ثم قطر المدار ثمانون مليون ميل تقريباً والمحيط سبعة وعشرون مليون ومائة وخمسة وتسعون ألف ميل ولا غرو أن ٢٦ درجة و٢٣ دقيقة قد أصبحت ستة عشر ونصف مليون، وخمسة وخمسين ألفاً ومائة وثلاثة وسبعين ميلاً، فهل تزعم بعد هذا أن هذه المسافة قليلة؟

بل لو فرضنا تجمع هذه السيارات على قرص الشمس نفسها فإن المسافة لا تزال هائلة بعد إذ المسافة تبقى حيثئذ مائتي ألف تقريباً لأن دائرة قرص الشمس تساوي سبعة وعشرين مليوناً، واثنين وعشرين ألفاً، وثلاث مائة وواحد وستين ميلاً.

السادس عشر- سلمنا أن جرم ضعيف المسام بحيث يقبل هذه الضربات المتباعدة الشديدة البعد ثم تسرى من قرصها وتجمع في موضع واحد، نقول سلمنا هذا لكنه لم لم تتضرر الشمس بالكواكب التي تجاور الشمس في عامة الأحيان على بعد خمسين أو ستين أو سبعين أو مائة درجة ولم لا تحطم ضرباتها الموحدة جرم الشمس، لو قيل إن هذه المسافة مانعة لوصول موجاتها إلى وجه الشمس، نقول فالمسافة هنا أبعد مما هنالك لأن المسافة هنا ١٨٠ درجة.

ثم هذا القران الذى ادعاه ألبرت بين يورينس وغيرها ليس أمراً محققاً بل هو حساب تقريبي، فلا يتم هذا القرآن على خط واحد بدقة على وجه التحقيق.

السابع عشر- سلمنا أن هذا كله مستقيم وصواب ولكن ما علاقة الزلازل والعواصف والرياح والأمطار بثقب الشمس وكلفها، أليس هذا الادعاء مثل تكهنات العرافين وأكاذيب المنجمين الذين يربطون حوادث العالم بالأنواء والنجوم وقد اعترفهم ببطلانها وهى فعلاً من الأباطيل، ثم هل الشمس صناعة أمريكية أو مواطن أمريكي لتختص أضرارها بالولايات المتحدة ولم لا تتجاوز أضرارها إلى بقية البلدان ولنا على ادعاء المنجم مؤاخذات أخرى لم نوردها، فيكفى للسابع عشر من ديسمبر السبعة عشر لما بينهما من التناسب.

وللمؤلف العلام حاشية نافعة تسمى، «المعتمد المستند بناء نجاة الأبد»، على كتاب جامع عظيم المقدار فى باب العقيدة الإسلامية سمي - «المعتمد المنتقد». لصاحب التصانيف الكثيرة العالم الربانى بحر الشريعة والطريقة، العلامة فضل الرسول القادرى البركاتى البدايوني « رحممه الله تعالى رحمة واسعة ونفعنا الله ببركاته.

وكلاهما باللغة العربية.

وأود أن ألتقط هنا بعض المواقف للشيخ الإمام أحمد رضا خان الحنفى من بعض المسائل العقدية التى كثر فيها القيل والقال، واشتد النزاع والجدال، ولم يكن مؤلفنا ليقلد فى أمور العقيدة لما كان يتمتع باستقلالية الفكر، واستيعاب للأصول، والفروع، وإحاطة شاملة بمواقف القوم ومشاربهم، فإليكم جانباً منه.

هل فى العقيدة ما يدرك بالعقل المحض، قال « إن مسائل العقائد منها ما يدرك بالعقل وحده كقولنا، إن للعالم صانعاً، وله كلاماً والرسول حق، إذ لو أثبت أمثال هذا السمع لدار، ومنها ما يدرك بالسمع وحده كحشر الأجساد والثواب والعقاب فى المعاد، ومنها ما يدرك بكل كتوحيد الله تعالى فافهم.

موقف المؤلف العلامة فى النصوص الموهمة للتشبيه، أقول، يجب عليك هنا التنبه لدقيقة، وهو أن الإجراء على الظاهر، قد يطلق، ويراد به الظاهر المفهوم لنا المتبادر إلى أذهاننا، حسب ما نعهده فينا وفى أمثالنا من يد وأصبع من لحم وعظم، ذواتى طول وعرض وعمق ونحز وتركب، ونزول، بحركة من فوق لتحت، وانتقال من حيز إلى حيز وهذا ما أجمع على نفيه أهل السنة والجماعة قديماً وحديثاً، وقد يطلق ويراد به ترك التأويل أى نجرى النص على ظاهره ونؤمن بأن له تعالى يداً تليق به كما يعطيه النص، ولا نقول إن اليد بمعنى القدرة كما يختاره أهل التأويل ولكن نؤمن أن يده تعالى متعالية عن الجسمية، والتركيب ومشابهة الخلق، وعن أن يحيط بها عقل أو وهم، بل هى صفة من صفاته القديمة القائمة بذاته

الكريمة لا علم لنا بمعناها وهذا هو مسلك الأئمة المتقدمين وهو المختار المعتمد الحق المبين وهو معنى ما يقال من الجمع بين التنزيه والتشبيه، فالتنزيه حقيقة والتشبيه لفظاً، وذلك أن لا اشتراك بين شيء من صفاته وصفات خلقه إلا فى الاسم ولله المثل الأعلى.

ولقد اشتدت وكبرت فى عصرنا مذلة بعض من يدعى البلوغ مبلغ الرجال، ويدعى فى العوام من أهل الكمال فادعى أن الإجراء على الظاهر بالمعنى الأول هو الحق من المقال، وبه تقول أئمة السلف والعباد بالله ذى الجلال، فلا والله ما هو إلا ضلال أى ضلال نستجير بذيل رحمة ربنا من المهاوى والمزال، والحمد لله المجير المتعال.

وقال فى موضع آخر، وهو يبدى موقفه من نسبة الفرح والرضاء والغضب إلى المولى عز وجل كما وردت فى الأحاديث النبوية الشريفة، قال : نفى المبادئ وإثبات الغايات على ما عليه المتأخرون فإن للغضب مثلاً مبدءاً وهو هيجان الدم وثوران القلب وغاية، وهو إرادة الانتقام وقصد الإسلام فالمراد بالغضب فيه سبحانه هذا لا ذاك - أقول أى من دون حدوث إرادة لأنها صفته القديمة وإنما الحادث ظهور تعلقها بالمراد، والحق عندنا، ما عليه أئمتنا إنا آمنا به كل من عند ربنا، لا نقول بالظاهر، ولا نخوض فى السرائر، ونكل العلم إلى العليم القادر.

هل الغنى عن المؤثر والوجوب الذاتى، مترادفان، قال « أقول، الغنى عن المؤثر يساوق الوجوب الذاتى. والوجوب الذاتى لا يقبل التعدد ونفى الغيرية المصطلحة لا ينفيه والحق الحقيق بالقبول المستقر عليه رأى الفحول، كالإمام الرازى والعلامة سعد وغيرهما ما ألقينا عليك من قبل إن الصفات واجبة للذات بالذات لا بالذات مستندة إلى الذات لا على وجه الخلق والأحداث بل على جهة الاقتضاء الذاتى الأزلى، والافتقار فى الوجود والقيام والممكن وكذا الحديث الذاتى أعم من الزمانى مطلقاً والقديم من الممكن من وجه بيد أننا لا نطلق الحدوث إلا فى الزمانى

كما لا نقول المخلوق إلا عليه لأن الخلق هو الإيجاد بالاختيار فاحفظه فإنه هم الحق وبه تنحل الإشكالات جميعاً، وبالله التوفيق.

هل القضاء المبرم يرد بالدعاء، قال، أقول أخرج أبو الشيخ في كتاب الثواب عن أنس بن مالك - رضى الله تعالى عنه - قال، قال رسول الله ﷺ، أكثر من الدعاء فإن الدعاء يرد القضاء المبرم، وأخرج الديلمي في مسند الفردوس عن أبي موسى الأشعري - رضى الله عنه - وابن عساكر عن ثمر بن أوس الأشعري مرسلًا كلاهما عن النبي ﷺ قال : الدعاء جند من اجناد الله فجنده يرد القضاء بعد أن يبرم.

وتحقيق المقام على ما ألهمنى الملك العلام أن الأحكام الإلهية التشريعية كما تأتي على وجهين، (١) مطلق عن التقييد بوقت كعامتها و(٢) مقيد به كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتَ أَوْ يُجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ مَسِيلًا﴾، فلما نزل حد الزنا، قال ﷺ خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً، الحديث رواه مسلم وغيره عن عبادة رضى الله تعالى عنه، والمطلق يكون في علم الله مؤبداً ومقيداً وهذا الأخير هو الذى يأتيه النسخ فيظن أن الحكم تبدل لأن المطلق يكون ظاهره التأييد حتى سبق إلى بعض الخواطر أن النسخ رقع الحكم وإنما هو بيان مدته عندنا، وعند المحققين كذلك الأحكام التكوينية سواء بسواء فمقيد صراحة كأن يقال، للملك الموت عليه الصلاة والسلام اقبط روح فلان في الوقت الفلاني، إلا أن يدعوفلان، ومطلق نافذ في علم الله تعالى وهو المبرم حقيقة ومصروف بدعاء مثلاً وهو المعلق الشبيه بالمبرم فيكون مبرماً في ظن الخلق لعدم الإشارة إلى التقييد معلقاً في الواقع فالمراد في الحديث الشريف هو هذا أما المبرم الحقيقي فلا راد لقضاءه، ولا معقب لحكمه وإلا لزم الجهل تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فاحفظ هذا فلعلك لا تجده إلا منا وبالله التوفيق.

قضية تكفير المنكرين لما علم من الدين بالضرورة: أقول تحقيق المقام: إن أكثر الخنفية يكفرون بإنكار كل مقطوع به كما مصرح به في «رد المحتار» وغيره

وهم ومن وافقهم هم القائلون بإنكار كل مجمع عليه، بعد ما كان الإجماع قطعياً نقلاً ودلالة ولا حاجة إلى وجود النص، والمحققون لا يكفرون إلا بإنكار ما علم من الدين ضرورة. بحيث يشترك في معرفته الخاص والعام المخالطون للخواص، فإن كان المجمع عليه هكذا كفر منكروه وإلا لا، ولا حاجة عندهم أيضاً إلى وجود نص فإن كثيراً من ضروريات الدين مما لا نص عليه كما يظهر بمراجعة «الإعلام» وغيره فالتقييد بوجود النص ضائع على القولين فاعرف.

هل النبي سيدنا محمد ﷺ أفضل العالمين، قال والحق أن تفضيل نبينا ﷺ على العالمين جميعاً مقدوح به مجمع عليه، بل كاد أن يكون من ضروريات الدين، فإنني لا أعلم بجهله أحد من المسلمين، فاعرف وثبت، وقد بينت في كتابي «تجلي اليقين بأن نبينا سيد المرسلين» إن خلاف المعتزلة أيضاً في غيره ﷺ، من الأنبياء السابقين فقالوا بتفضيل الملائكة عليهم صلوات الله تعالى عليهم أجمعين، أما هو ﷺ فأفضل منهم جميعاً بإجماع بلا نزاع، أما الزمخشري فقد سفه نفسه وجهل مذهبه كما نبه عليه العلامة الزرقاني في «شرح المواهب اللدنية».

هل صفة الله عز وجل عين الذات، قال بعد إيراد المذاهب ومناقشة أدلتها، وبالجملة فالذي نعتقده في دين الله تعالى أن له - عز وجل - صفات أزلية قديمة قائمة بذاته - عز وجل - لوازم لنفس ذاته تعالى ومقتضيات لها بحيث لا تقدير للذات بدونها وهي المفتاقة إلى الذات لأنها باقتضاءها وقيامها بها وهي الكمالات الحاصلة للذات بتفلس الذات فلا مصداق لها إلا الذات فلها حقيقة بها هي هي وهي المعاني القائمة القديمة المقتضيات للذات، وحقيقة بها هي وما هي إلا عين الذات من دون زيادة أصلاً، فافهم وثبت وإياك أن تزل فإن المقام مزلة الأقدام وبالله التوفيق وبه الاعتصام.

هل أبوا النبي ﷺ كائناً من أهل الإيمان، قال: ونص الإمام الرازي في «أسرار التأويل» وغيره من المحققين حتى المولى بحر العلوم في «الفواتح بإسلام آباء»

الأنبياء وأمهاتهم جميعاً من الأقربين إلى آدم وحواء عليهم الصلاة والسلام وقد أثبت ذلك الإمام الجليل الجلال السيوطي في نبينا ﷺ .

وللعبد فيه رسالة مستقلة سميتها ... «شمول الإسلام لأصول الرسول الكرام» فهذا الذي نحب أن ندين الله به. أما أزر فعم كما نص عليه الإمام ابن حجر في «شرح أم القرى» وغيره في غيره والعرب تسمى العم أبا : ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ .

وقال في موضع آخر، في هذه المسألة، وبالجملية فقد ظهرت لنا بحمد الله تعالى على إسلام الأبوين الكريمين رضي الله تعالى عنهما دلائل ساطعة لم تبق لأحد مقالا ولا لريب والشك مجالا، والخلاف لم يخف عنا ولكن إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل ولله الحمد.

اجتهاد رافع في آية ليس «كمثله شيء»، قال، وأنا أقول - يظهر لي - والله سبحانه وتعالى أعلم - أن الكريمة كأنها دعوى مع بينة وذلك، أنه سبحانه واجب الوجود - فهو مستحيل الانتفاء - ولو كان له مثل لكان هو مثل مثله بالضرورة، لكنه لا مثل لمثله فوجب أن لا يكون له مثل وإلا لزم انتفاء الواجب وهو محال، وبعبارة أخرى، في صفات الإله - عز وجل - ما لا يقبل العقل اشتراكه بين اثنين فلو كان له سبحانه مثل لا تصف بهن فتعالى عن المثلية، وتعالى المثل عن المثلية باطل صريحاً فلزم أن لا يكون له تعالى مثل أصلاً - فعلى هذا لا زيادة ولا تأويل والله أعلم بمراد التنزيل .

موقف المؤلف العلام، من تنويع كلام الله - عز وجل - إلى النفسي واللفظي، وله في هذه المسألة رسالة نفيسة مسماة بـ «أنوار المنان في توحيد القرآن»، قال، والحق عندنا أن التنويع إلى النفسي واللفظي إنما مال إليه المتأخرون، إجحافاً للمعتزلة وإفهاماً للعقول السافلة، كما اختاروا في المتشابهات مسلك التأويل، وإنما المذهب ما عليه أئمة السلف .

إن كلام الله تعالى واحد لا تعدد فيه أصلاً لم ينفصل ولن ينفصل عن الرحمن، ولم يحل في قلب ولا لسان، ولا أوراق ولا آذان، ومع ذلك ليس المحفوظ في صدورنا إلا هو ولا المتلو بأفواهنا إلا هو ولا المكتوب في مصاحفنا إلا هو، ولا المسموع بأسماعنا إلا هو لا يحل لأحد أن يقول بحدوث المحفوظ المتلو المكتوب المسموع، إنما الحادث نحن وحفظنا وألستنا، وتلاوتنا، وأيدينا، وكتابتنا، وآذاننا، وسماعتنا، والقرآن القديم القائم بذاته تعالى، هو المتجلي على قلوبنا، بكسوة المفهوم وألستنا بصورة المنطوق، ومصاحفنا بلباس المنقوش، وآذاننا بذي المسموع فهو المفهوم المنطوق المنقوش المسموع، لا شيء آخر غيره دالا عليه، وذلك من دون أن يكون له انفصال عن الله سبحانه وتعالى أو اتصال بالحوادث أو حلول في شيء مما ذكر وكيف يحل القديم في الحادث، ولا وجود للحادث مع القديم إنما الوجود للقديم وللحادث منه إضافة لتكريم - ومعلوم أن تعدد التجلي لا يقتضي تعدد المتجلي.

م بد م كر لباس كشت بدل، شخص صاحب لباس راجه خلل عرف هذا من عرف، ومن لم يقدر على فهمه فعليه أن يؤمن بالله وسائر صفاته، من دون إدراك الكنه، وبعض تحقيق المرام في كلمات السادة الأعلام كالمطالب الوفية للمولى العارف بالله سيدي عبد الغني النابلسي وغيرها من كلمات حملة العلم القدسي، رضى الله عنهم ورحمنا في الدارين بهم، آمين.

هل يجوز إفراد وصف الله عز وجل بإرادة الشرع؟ قال، إن مناط المنع إفراد الوصف بإرادة الشرع، وعند الجمع لا بأس به، جملة وتفصيلاً، كأن تقول إنه تعالى هو الذي يريد الخير والشر، والإيمان والكفر، أو تقول إن الكفر أيضاً لا يقع إلا بإرادته سبحانه وتعالى كالإيمان، أو تقول قائل لا إيمان إلا بمشيئته عز وجل فتقول ولا كفر، أما أن تبدئي قائلًا يا مريد الشرور ونحو ذلك فهو المحذور، وفيه المحذور وهذا كله من باب الأدب في الكلام على وزان ما أفاده من جواز أن يقال،

الله الباسط ، القابض النافع الضار المانع المعطي، الرافع الخافض، المعز المذل، المحيي المميت المقدم المؤخر، الأول الآخر، ولا يقال، الله الضار القابض، المانع الخافض، المذل المميت المؤخر الآخر كما نقله الإمام البيهقي في كتاب «الأسماء والصفات»، عن الإمامين الحليني، والخطيبي في «الباسط القابض» وقست عليه النافع الضار، ثم رائيته رحمه الله صرح به فيهما وفي كل ما ذكرت نقلا عن الحليني إلا الأخير وهو كما ترى أولى بالمنع من المؤخر ثم هذا القول هو المختار، عندي وبه يشعر كلام المصنف العلام - أى العلامة فضل الرسول القادري البركاتي البدايوني رحمه الله تعالى ونفعنا بركاته حيث قدمه. والله تعالى أعلم.

وأرجو من المولى - عز وجل - أن أكون قد وفقت في نيتي حيث أردت أن أوقف القارئ الكريم على بعض المواقف النيرة من حياة هذا المجاهد الشجاع الذي وهب كل شيء في سبيل حب الله - عز وجل - وحب رسوله الكريم عليه أفضل الصلوات التسليم.

وصلّى الله تعالى على خير خلقه وعلى الله وأصحابه وبارك وسلم.

محمد جلال رضا

كلية أصول الدين (قسم التفسير)

جامعة الأزهر الشريف

القاهرة - مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

نود أن نوضح للسادة العلماء - أدام الله تعالى بركاتهم - أن زياداً الفلسفى قد ألف كتاباً فى فن المنطق، وهو يدعى انتماءه إلى أهل السنة والجماعة، ويزعم انتسابه إليهم بل يعد نفسه أكثرهم علماً وأوسعهم معرفة، ويزدري العلماء الآخرين ويحقرهم. ألف الكتاب المذكور وشحنه بخرافات الهولوى وترهات قدم العقول العشرة وأباطيلها وغير ذلك من الأوهام الفلسفية، ومزاعم الفلاسفة. وأحضر - بصفتى خادماً للسنة المطهرة - بعض الأقوال الملتقطة من هذا الكتاب إلى جناب السادة العلماء نصرة للملة الطاهرة.

القول الأول: التحقيق^(١) أنها ليست الطبائع كلها مجردة محضة لكن للطبائع المرسلة فى باب التجرد والمادية مراتب إلى أن قال - السابعة مرتبة الماهيات المجردة بالكلية لا تعلق لها بالمادة تعلق التقويم، أو الحلول، أو التدبير، والتصرف، ولا تعلق لها إلا تعلق الخلق والإيجاد مثلاً وهى حقائق المقارقات القدسية كالمعقب

(١) لقد قسم القوم العالم إلى أقسام، ولشرح هذه العبارة أنقل :

إن النظر فى ملكون السموات والأرض لا يكون إلا بعد معرفة أقسامها وتفصيل الكلام فى شرح أقسامها أن يقال كل ما سوى الله تعالى فهو إما أن يكون متحيزاً أو حالاً فى المتحيز أو لا متحيزاً ولا حالاً فى المتحيز أما المتحيز فإما أن يكون بسيطاً وإما أن يكون مركباً، أما البسيط فهو إما علوية وإما سفلية، أما العلوية فهي الأفلاك والكواكب ويندرج فيما ذكرناه العرش والكرسى، ويدخل فيه أيضاً الجنة والنار والبيت المعمور والسقف المرفوع واستقصى فى تفصيل هذه الأقسام وأما السفلية فهي طبقات العناصر الأربعة ويدخل فيها البحار والجبال والمفاوز، وأما المركبات فهي أربعة: الآثار العلوية والمعادن والنبات والحيوان، واستقصى فى تفصيل أنواع هذه الأجناس الأربعة وأما الحال فى المتحيز وهى الأعراض فيقرب أجناسها من أربعين جنساً ويدخل تحت كل جنس أنواع كثيرة ثم إذا تأمل العاقل فى عجائب أحكامها ولوازمها وآثارها فكأنه خاض فى بحر لا ساحل له، وأما القسم الثالث وهو أن الموجود لا يكون متحيزاً ولا حالاً فى المتحيز فهو قسمان؛ لأنه إما أن يكون متعلقاً بأجسام بالتدبير والتشريك وهو المسمى بالأرواح، وإما أن لا يكون كذلك وهى الجواهر القدسية المبرأة من علائق الأجسام أما القسم الأول فأعلامها وأشرفها، الأرواح الثمانية المقدسة الحاملة للعرش كما قال تعالى، ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾. وتتلوها الأرواح المقدسة المشار إليها بقوله سبحانه: ﴿وتتري الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم﴾.

القدسى وسائر العقول العشرة^(١) والحقيقة الواجبة، إلى آخره ملتبساً من ص ٢٥٠ إلى ص ٢٥١.

وقد تعرض المؤلف المذكور لهذه القضية فى رسالة له تسمى «القول الوسيط» فقال «العلة الجاعلة يجب كونها واجبة الوجود أو يمكن كونها ممكنة؟ المشهو

(١) العقول العشرة عند الفلاسفة، كما نقل عنهم حجة الإسلام الإمام الغزالي فى كتابه الشهير «تهافت الفلاسفة» إن الموجودات تنقسم إلى ما هى فى محال كالأعراض والصور وإلى ما ليست بمحال كالموجودات التى هى جواهر قائمة بأنفسها، وهى تنقسم إلى ما يؤثر فى الأجسام ونسبها نفوساً وإلى ما لا يؤثر فى الأجسام بل فى النفوس ونسبها عقولاً مجردة. أما الموجودات التى محل فى المحال كالأعراض فهى حادثة ولها علل حادثة وتنتهى إلى مبدأ هو حادث من وجه دائم من وجه وهى الحركة الدورية وليس الكلام فيها، وإنما الكلام فى الأصول القائمة بأنفسها لا فى محال وهى ثلاثة، أجسام، وهى أخسها وعقول مجردة وهى التى لا تتعلق بالأجسام لا بالعلاقة الفعلية ولا بالانطباع فيها وهى أشرفها ونفوس وهى أوسطها فإنها تتعلق بالأجسام نوعاً من التعلق وهو التأثير والفعل فيها فهى متوسطة فى الشرف فإنها تتأثر من العقول وتؤثر فى الأجسام، ثم الأجسام عشرة تسع سموات والعاشر المادة التى هى حشو مقعر فلك القمر، والسموات التسع حيوانات لها أجرام ونفوس ولها ترتيب فى الوجود كما نذكره، وهو أن المبدأ الأول فاض من وجوده العقل وهو موجود قائم بنفسه ليس بجسم ولا منطبع فى جسم يعرف نفسه ويعرف مبدأه وقد سمينا العقل الأول ولا مشاحة فى الأسامى سعى ملكاً أو عقلاً أو ما أريد ويلزم عن وجوده ثلاثة أمور عقل، ونفس، الفلك الأقصى وهى السماء التاسعة وجرم الفلك الأقصى. ثم لزم من العقل الثانى عقل ثالث ونفس فلك الكواكب وجرمه ثم لزم من العقل الثالث عقل رابع ونفس فلك زحل وجرمه ولزم من العقل الرابع عقل خامس ونفس فلك المشتري وجرمه وهكذا حتى انتهى إلى العقل الذى لزم منه عقل ونفس فلك القمر وجرمه.

والعقل الأخير هو الذى يسمى العقل الفعال، ولزم حشو فلك القمر وهى المادة القابلة للكون والفساد، من العقل الفعال وطبائع الأفلاك. ثم إن المواد تمتزج بسبب حركات الكواكب امتزاجات مختلفة يحصل منها المعادن والنبات والحيوان ولا يلزم أن يلزم من كل عقل عقل إلى غير نهاية لأن هذه العقول مختلفة الأنواع فما ثبت لواحد لا يلزم للآخر. فخرج منه أن العقول بعد المبدأ الأول عشرة والأفلاك تسعة ومجموع هذه المبادئ الشريفة بعد الأول تسعة عشر. وحصل منه أن تحت كل عقل من العقول الأول ثلاثة أشياء عقل ونفس فلك وجرمه فلا بد وأن يكون فى مبدئه تثلث لا محالة، ولا يتصور كثرة فى المعلول الأول إلا من وجه واحد وهو أنه يعقل مبدأه ويعقل نفسه وهو باعتبار ذاته ممكن الوجود لأن وجوب وجوده بغيره لا بنفسه وهذه معاني ثلاثة مختلفة والأشرف من المعلولات الثلاثة ينبغى أن ينسب إلى الأشرف من هذه المعاني فيصدر منه العقل من حيث إنه يعقل مبدأه، ويصدر نفس الفلك من حيث إنه يعقل نفسه ويصدر جرم الفلك من حيث إنه ممكن الوجود بذاته، ذكره الغزالي ورد عليه وسخر منه، تهافت الفلاسفة ص ٩٣. محمد جلال رضا.

الثانى فيما بين الحكماء لكن المحققين منهم نصوا أن العلة المؤثرة بالذات هو البارى، والعقول كالوسائل والشروط لتعلق التأثير الواجب بغيرها كيف والماهية الإمكانية إنما وجودها بالاستعارة من الواجب فهو المعطى بالذات الوجودات، فإن إعطاء المستعير ليس إعطاء حقيقة، وإنما هو إعطاء من تلقاء المالك كما أن استناد إضاءة العالم إلى القمر ليس حقيقة بل بحسب الظاهر وإنما هو مستند إلى الشمس، والقمر واسطة محضة لانتقال ضوءها إلى العالم فالمتبر بالذات هي لا هو فعلية الممكن للممكن ظاهرة مجازية فهذا الوجود الضعيف يصلح علة بمعنى الوسطة والشرط والتمم والآلة لا مفيدة للوجود حقيقة وقد استوفى التحقيق فى مقامه إلى آخره ملخصاً ص ٢.

ويتلوها سكان الكرسي وإليهم الإشارة بقوله، «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ». ويتلوها الأرواح المقدسة فى طبقات السموات السبع، وإليهم الإشارة «وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا»، ومن صفاتهم أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويسبحون الليل والنهار لا يفترون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

تفسير الفخر الرازى المشتهر بـ «التفسير الكبير».

المجلد الثامن سورة الأعراف، ص ٨٢، ٨٣.

محمد جلال رضا

القول الثانى: المسألة القائل بأن كل حادث مسبوق بمادة مخصوصة بالحادث الزمانى والمادة حادث ذاتى. إلى آخره مختصراً ص ٢٥٥.

القول الثالث: الصورة الجسمية والنوعية أيضاً من الحوادث الذاتية ص ٢.

القول الرابع. السرمديات، والثابتات الدهرية كالعقول والنفوس القديمة إلى آخره ص ١٥.

القول الخامس - كتب وهو يتحدث عن وجود الكلى الطبيعى فى الخارج، اعلم! أن الباقر^(١) استدل على هذا بأن طبيعة الحيوان المرسل ليس متعلق الذات بمادة ومدة فلا يكون ومرهون الوجود بالإمكان الاستعدادى فالإمكان الذى هناك، ملاك فيضان الوجود، فإذا كان هذا الحيوان المتعلق بالمادة فائض الوجود فالمرسل أحق بالفيضان لاستحقاق الإمكان الذاتى، وحاصله أن الحيوان المطلق مستحق للوجود بإمكانه الذاتى والحيوان الخاص الجزئى يتوقف فى وجوده على استعداد ومادة وغواشيها فالمطلق الكلى أحق بفيضان الوجود فلا يرد ما أورده بعض الكتاب بأن الإمكان علة اقتصار علة الجعل فأحقية الفيض لا يستلزم الفعلية، لم لا يجوز أن الطبيعة لقصورها وعدم قابليتها ما استفاض الوجود؟ انتهى. ثم هذا القول مردود بوجه، أن أحقية الفيض مستلزمة للفعلية لأنه لا يخل من جانب المبدأ الفياض فلو لم يوجد الأحق واستفاض منه غير الأحق لزم ترجيح المرجوح إلى آخره، مختصراً ص ٣٤٩.

القول السادس: واضح أن الفلاسفة قسموا المفهوم إلى جزئى وكلى فوجه إليهم إيراد مؤداه أن الجزئى المجرد لا يدرك إلا بعنوان كلى والمادى لا يمكن ارتسامه فى العقل المجرد والمفهوم ما حصل فى العقل، وقد حاول زيد توضيح هذه القضية بكلام مسهب فقال الجواب! إنا لا نسلم أن الجزئى المادى يدرك بعنوان كلى بل ذلك هو التحقيق^(٢)، عندنا لأن العقول العشرة عندهم مبرأة عن جميع شوائب

(١) أقول: إن إطلاق كلمة «المبدأ الفياض» على الله جل جلاله فيه نظر وذلك بوجه أولاً: «إن لفظ المبدأ لم يرد فى الشرع، ولكن ورد لفظ آخر يشبهه شكلاً، وهو مبدئى من باب إكرام ثانياً إن المبدأ يطلق على جانب من امتداد الكم المتصل أو المنفصل الذى يبدأ منه الحركة أو العدد مثلاً فكان هذا اللفظ موهماً، ثالثاً، كذلك لفظ الفياض حيث إنه لم يرد فى الشرع رابعاً، إن إطلاق صيغة المبالغة على المولى جل جلاله متوقف على السماع، خامساً، إن هذه الكلمة تحمل معنى آخر فى اللغة يستحيل على المولى جل جلاله كما فى القاموس، فاض، أى هلك، والفياض كثير الهلكة. سلطان أحمد خان السائل.

(٢) أقول: لا يخفى قلق العبارة ههنا، ومقصوده أن الجزئى المادى له تدركه العقول بوجه جزئى بل ذلك إلى آخره، سلطان أحمد خان السائل.

النقص والقبح ومقدسة ومنزهة عن سائر القبائح والنقائص والجهل أشد القبائح فلا يعزب عن علمها ذرة من ذرات الموجود في العالم كلياته وجزئياته ومادياته ومجرداته فلا يمكن أن لا يعلم العقل الأول مثلاً تشخيصات الموجودات وإلا لزم الجهل فيه، إلى آخره، بقدر المقصود ص ٢٠٦.

القول السابع: المذهب المحقق عند المحققين أن الأعدام اللاحقة الزمانية ليست أعداماً حقيقية بل العدم اللاحق غيبوية زمانية بناءً على ما ثبت من وجود الدهر المعبر عنه بمن نفس الأمر وحق الواقع الذي يسع كل موجود وعلى هذا فالأعدام السابقة على الوجود إذا كان الحادث^(١) متحققاً في جزء من أجزاء الزمان أيضاً غيبوبات زمانية والعدم الحقيقي إنما هو بالارتفاع والبطلان من صفحة الواقع فلا يكون العدم بانتفائه عن كل جزء^(٢) من أجزاء الزمان كما في السرمديات المتعالية عن الزمان والتغير وبالجمله على هذا التحقيق لا يكون الزمانيات معدومة عن الواقع بل عن وقت وجوده إلى آخره ملتقطاً ص ١٥.

القول الثامن: قد أشاد فيه بمضامين الكتاب وأثنى عليها ثناء بالغاً حتى قال إن لهذا المؤلف من القوة والتأثير ما للملك بل هو ملك نفسه وهذا الكتاب له تأثير فعال في تصقيل الذهن، ومضامينه نافعة جداً في تنوير الفكر كما أشاد بمحتويات الكتاب في خطبته قائلاً: إن محتويات هذا الكتاب بالغة في اكتناه الحقائق وتحليلها بالتدقيق الفصيح والتحقيق الصريح وسمى كتابه هذا «المنطق الجديد لناطق أئنا له الحديد» وهو الاسم المطبوع على واجهة الكتاب غير أن اسمه في متن الكتاب

(١) هذا مستغنى عنه بعد ذكر السبقة على الوجود، كما لا يخفى. لا يبدو ما ههنا في الأصل لعله «أن يقول أو نحوه» والمعنى تام بدون ذلك أيضاً محمد أحمد المصباحي.

(٢) أقول، هذا جهل عظيم فإن الزماني لا يوجد إلا في الزمان فإن خلا عنه الزمان بجميع أجزائه خلا عنه الواقع البتة، وقس عليه المكاني إن خلت عن الأمكنة بأسرها كان معدوماً في نفس الأمر وإلا لم يكن المكاني مكانياً. (سلطان أحمد خان السائل).

يختلف عنه قليلا فقد ورد اسمه فى داخل الكتاب «المنطق الجديد من ناطق من ألنا له الحديد» (أى من «ناطق» بدل لـ «ناطق») والمطلوب توضيحه من السادة العلماء، هل هذه الأقوال السابقة موافقة للحق والصواب أم مجافية عنهما من ناحية النظرة الشرعية؟ وهل هذا الثناء والإطراء متحليان بحلية الصواب أم عاطلان عنها؟ وهل فى تسمية الكتاب بهذا الاسم من محذور شرعى؟

سلطان أحمد خان غفر الله له

غرة شهر رجب عام ١٣٠٤ هـ من الهجرة

الإجابة:

الحمد لله الذى رضى له الإسلام ديننا، وأغنانا عن شقاشق الفلاسفة غناء مُبيناً، وأرسل نبيا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله فأنتم الحجة وأوضح المحجة، وصدع بالحق دقه وجله، فصلى الله تعالى وبارك عليه وعلى آله وصحبه، حمأة السنن، ومحاة الفتن، وكل محبوب ومرضى لديه، صلاة تبقى وتدوم بدوام الملك الحى القيوم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك فى الخلق والتدبير والأمر والتقدير والوجود القديم والعلم المحيط وأن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله الأتى بالملة الغراء والحكمة البيضاء المنزهة عن كل خبط وتخليط وإفراط وتفريط، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وكل متمم إليه آمين ! آمين ! إله الحق آمين !

ثبت الله عز وجل خطأنا على دين الحق، وحفظنا عن آفات التفلسف وعاهاته. إن هذه الأقوال جميعاً بصفة عامة - شنيعة جداً وبالغة غاية القبح والفظاعة، ولقائلها وعيد شديد وتهديد أليم فى الشرع المطهر، وعلى وجه الخصوص، القول الأول، فإن بعض ما يستفاد منه بوضوح أن البارئ عز وجل عاطل عن التدبير والتصرف فى الكائنات المادية وفى معزل عن التدبيرات البينة والتصرفات المحكمة والترتيبات البديعة التى تتجلى فى البدن الإنسانى صباحاً ومساءً وليل نهار والعجائب الكثيرة التى تظهر كل وقت وحين، التى تحار فى استكناه حقائقها العقول المتوسطة، وأن هذه الصنائع البديعة وتلك الأفعال الجليلة، وهذه الأمور الجميلة من مبدعات النفس الناطقة ومخترعاتها التى لا علاقة لها بالله عز وجل، ولا تصرف له فى شىء منها.

لا إله إلا الله محمد رسول الله - استغفر الله العظيم - والعياذ بالله الكريم، لقد بعد عن الحق وحاد عن جادة الطريق، هل هناك كفر أكبر من هذا؟ سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً وقد تكفل القرآن الكريم بالرد على هذه الترهة الفلسفية

وأغنانا عن اللتيا والتي فاقراً مستهلات سورة يونس، ورعد، والسجدة تجدها
كافية في هذا الباب.

ففي سورة يونس، قال المولى عز وجل : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ
إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ
حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) هُوَ
الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ
وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي
اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾،
[يونس ٦:٣].

وفي سورة الرعد يقول المولى عز وجل : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ
تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى
يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلَاءَ رَبِّكُمْ تَوْقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ
وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي
اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قُطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٍ
وَجَنَاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ وَنُحُلٌ صُنُوفٌ غَيْرُ صُنُوفٍ يَسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضِلُ
بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد ٤:٢].

وفي سورة السجدة قال ربنا تبارك وتعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ
مِنْ رَبِّكَ لَتَنْذِرَنَّهُمْ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) اللَّهُ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ
مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى
الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرَجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَلِكَ عَالِمُ

الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾، [السجدة ٩: ٣].

وفى سورة يونس أيضًا قال الحق جل جلاله : ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأُمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، [يونس، ٣١].

أى قل للكافرين من يرزقكم من السماء - بإنزال المطر ومن الأرض بإنبات الزرع ومن يملك السمع والأبصار بربط المسيبات والعواقب بالأسباب العادية والمبادئ الجارية. ومن يحمل الهواء الصوت بالقرع ويأمره بالحركة فيوصله إلى العصبية المفروشة فى الأذن ثم يخلق فيها قوة الإدراك بمحض قدرته الكاملة ولو لم يشأ لن تشعر الأذن أبدا بصوت الصور المذهل فضلا عن الأصوات العادية وكذلك العين فلإنها لن تدرك المرئيات التى أمامها - وإن انتفت الموانع كلها وتوفرت الشروط العادية كلها (والله أعلم أن ذلك بالانطباع أو خروج الشعاع كما قد شاع أو كيفما شاء) إلا إذا أمر الله الحكيم بالإدراك - فإن لم يشأ لن تدرك العين المكشوفة الجبل الأشم فى ضياء النهار، ومن يخرج الحى من الميت أى المؤمن من الكافر، أو الإنسان من النطفة، أو الطير من البيض، ومن يدبر الأمر، أى هو الذى يتصرف فى السماء والأرض، ويدبر كل نشاط من أنشطة الجسم وكل نظام من أنظمتها؛ لأنه الذى يوصل الغذاء إلى الجسم ثم يمسكه فيه فيمنحه قوة الهضم ويخلق العطش لتيسير الدفع إلى الخارج ثم يوصل الماء إليه ويحول المادة الغليظة

إلى المادة الرقيقة ويصير المادة اللزجة مادة منزقة ثم يطرح مخلفات كيلوس^(١)، إلى الأمعاء ثم يوصل الخالص منها إلى الكبد عن طريق ماساريقا^(٢)، ويحوّله إلى مادة كيموس^(٣)، ويجعل الغليظ منها سوداء^(٤)، والزبد صفراء، ويحول الخام منها إلى البلغم والمطبوخ إلى الدم، ويطرح الفضلة إلى المشانة ثم يصبها من باب الكبد إلى العروق، ثم يطبخه هنالك مرة ثالثة ويخرج المخلف منها عرقاً ويمر المواد الخالصة النقية منها من العروق الغلظية إلى الجداول ومن الجداول إلى السواقي ومن السواقي إلى الشرايين الدقيقة المعقدة ومن منفذ ضيق إلى أضيق منه ولا يزال يمرها كذلك من المنافذ الدقيقة حتى يصبها من فويهات الشرايين على الأعضاء الظاهرة ومما يدعو إلى العجب ويبحث على الاندهاش أن يأخذ كل عضو من الغذاء ما له بدون خطأ وإن يصيب كل جزء ما يناسبه ويوافق طبيعته ووظيفته، ثم تطبخها الأعضاء هنا مرة رابعة لتشكّل بشكل عضوى جديد وبذلك يتوفر بدل ما يتحلل من الجسم لاستمرار البقاء الشخصى ثم يمنح ما يزيد عن الحاجة النمو، والله عز وجل غنى عن كل هذا، إن يشأ يحيى بلا غذاء آلاف السنين ويمنح الجسم نموه الكامل دون احتياج إلى غذاء، ثم يصير الفضلة الباقية منياً ويوزعه إلى الصلب والترائب ويخلق فيه قوة العقد والانعقاد ويؤلف بين الرجل والمرأة ويعطى المرأة الشوق الجامح إلى الرجل مع ما تقاسى من مشاق الحمل وصعوبات الوضع ويدبر الأسباب لحفظ النوع البشرى من الانقراض ويأمر الرحم بالجذب ثم يأمرها بالإمساك ثم يطبخه ويجعله مضغّة ثم ينبت فيها

(١) عبارة عن المواد الغذائية التي تتجمع على شكل كتلة عجينية في المعدة قبل أن تدخل الأمعاء الدقيقة.

(٢) اسم لشريان تمتد من البطن إلى الكبد.

(٣) الخلاصة الغذائية وهي مادة لينة بيضاء صالحة للامتصاص تستمدّها الأمعاء من المواد الغذائية في أثناء مرورها بها.

(٤) عند القدماء أحد الأخلاط الأربعة في الجسم وهي: الصفراء، والدم، والبلغم، والسوداء.

الأعضاء ويخلق فيها أنواعاً من العظام ويكسو العظام لحمًا ويكسو اللحم جلدًا واقياً ويشق فيها مئات من الشرايين ويوجد فيها آلافاً من العجائب ثم يصور فيها كما يشاء ثم ينفخ فيها الروح بقدرته ويوفر فيها الرزق لهذا العاجز المسكين فى ظلمات ثلاث ويخلق فيه القوة للخروج ويمسكه لوقت معلوم ثم يحركه للخروج فى أجل مسمى ويسهل السبيل للخروج إلى هذا العالم الناطق ثم ينبت نباتاً حسناً وينوره بالعقل والفهم، فتبارك الله أحسن الخالقين، وهو غنى عن كل هذا إن يشاء يخرج من الحجر الأصم ملايين من البشر ولو شاء لأمطر بلايين من الإنسان من السماء، ولئن سألتهم من يدع هذا كله فسيقولون الله فقل أفلا تتقون.

أما بالله وحده آه، آه، أيها المتفلسف المسكين ألم بأن لك أن تؤمن وتوقن بأن هذه التدبيرات المحكمة وتلك التصرفات البديعة لا يمكن أن تصدر إلا من ذلك الحكيم العليم - جل جلاله وعم نواله - فبأى حديث بعده يؤمنون. لقد ذكر الفقير - غفر الله تعالى له - هذه الكلمات الموجزة - بقدر ما دعت إليه الحاجة هنا فى شرح هذه الآية الكريمة وتفسيرها^(١)، مع ملاحظة أن هذا كله أقل من قطرة بالنسبة إلى بحره العظيم الذى لا حد له، وإلا فكل ما كان من الأزل إلى الآن وما سيكون من الآن إلى الأبد بل إلى أبد الأباد شرح وتفسير لهاتين الكلمتين الموجزتين «يدبر الأمر» وكل ذلك مندرج تحت مفهومهما، سبحانه ما أعظم شأنه.

فليتأمل المسلم، أن هذه الأمور العظيمة وتلك الحكم البديعة التى تتجلى ليل نهار فى جسم الإنسان - وقد أشرنا إلى بعضها إشارة عابرة - إنها لقطرة صغيرة من بحره العظيم اللامحدود وصحرائه اللامتناهية، ومع ذلك لا تستطيع ملايين بل بلايين النفوس الناطقة الاطلاع على شىء منها بله الإحاطة. فإن اطلع واحد من الآلاف بعد سنوات من البحث والدراسة، والمجهودات المتواصلة المضنية على شىء عجز عن إصلاح عضو إن مريض، أو تقويم جزء إن عطل، فمن

(١) ومن أراد مزيد الاطلاع فى هذا الباب فعليه برسالة الإمام الغزالى حجة الإسلام المسماة «الحكمة فى مخلوقات الله» باب فى حكمة خلق الإنسان، محمد جلال رضا.

أجهل^(١)، بمن يسند هذه التدبيرات المحكمة اللامعدودة إلى النفس الناطقة الجاهلة العاجزة؟ فما أحسن المدبر وما أجمل المعتقد ضعف الطالب والمطلوب.

سبحان الله! إن كان هذا حقًا وكان ربنا تبارك وتعالى في معزل عن هذه الأمور بالكلية - كما يدعى هذا الفيلسوف - فيا أسفاه على جهالته، وحماقته، فأقول له أيها الفيلسوف! ألم تعبد نفسك الناطقة التي تحمل مثل هذه القوة الخارجة وتقوم بإدارة الشئون الجسمانية الجلية بذاتها، وربنا المستعان على ما تصفون.

وهذا أحد الكفريات الجلية في قول زيد ثم أقول، إنه لا يخفى على المتأمل العارف والمناظر المنصف أن جو الكلام وسياقه ليوحيان بل يتبادر ويتجلى منه مفهوم خالقية العقول ومما يقوى هذا التبادر ويؤيده هو ما ذهب إليه القائلون بالعقول من خالقيتها.

فإن كابر مكابر وشكك في هذا التبادر - إذا الخرقاء لا تعدم الحيلة - فلنصرف النظر عن التبادر على سبيل التنزل فلا مفر عن تعادل^(٢) الكفتين وتساوى الطرفين

(١) ولا عجب من سفهاء الفلاسفة ونظراء الهنقة حيث إنهم يسندون تصوير الجنين وغيره من الأفعال المتقنة الحكيمة إلى النفس الحيوانية بل ولا يستحيون من إسنادها إلى القوة غير الشاعرة، وقد صدق عليهم وأمثالهم ما على مثلهم يعد الخطأ.

(٢) أقول: سأوضح هذا التبادر من كلامه بمثال سيكتفي المنصف - إن شاء الله تعالى - ولا عبرة بالمتعسف إذ المتعسف لا تكفيه الأسفار، فمثلاً لو قال أحد، إن الناس في علاقتهم بالقرآن الكريم على أنواع، منهم من يستنبط الأحكام الشرعية بملكاتهم الاجتهادية ومنهم من يفسره بحزم واحتياط ومنهم من يقرأه ويتلوه ومنهم من يسمع ومنهم من يتعلم ويعلمه وجميعهم لهم علاقة صادقة وصلبة قوية بالقرآن الكريم ومن الناس من ليس لهم شيء من هذه الصلات الطيبة إلا علاقة العدواة، والتكذيب مثلاً مصنف المنطق الجديد، والمجوس، والهندوس، والنصارى، واليهود.

أجب بصدق وأمانة، ألا استفاد من سياق هذا الكلام إن القائل قد جعل مصنف المنطق الجديد من مكذبي القرآن الكريم وأعدائه، وإن كان هناك احتمال أن نصرّف علاقة التكذيب والعدواة إلى ما ذكر بعد «مصنف المنطق الجديد» من المجوس والهندوس والنصارى واليهود وأن نتصور لمصنف «المنطق الجديد» علاقة ذهنية أخرى غير السابقة واللاحقة مثل التكهن أو التجارة ونعتذر إلى القراء الكرام عن التمثيل على هذا النحو الخاص وما أردت منه إلا تبين الحق إذا الإنسان في كلام الخصم دائماً يميل إلى المعنى الظاهر التبادر ولقلاً يلتفت إلى الاحتمالات البعيدة ليعذر خصمه فإذا قارنا بين هذا المثال وبين كلام زيد فلن نجد بينهما من فرق في سوق الكلام وصياغته فإذا أفادت صياغة هذا المثال على هذا النحو ما قد رأينا من المعنى المتبادر منه فلا شك إذ إن ما يتبادر من سياق كلامه هو خالقية العقول، والله الهادي . سلطان أحمد خان غفر له.

فإن تنازلنا عنه أيضاً فلا محيد البتة عن الإيهام الشديد والإيهاء القوى بخالقية العقول، ولا يخفى أن مجرد الإيهام فى مثل هذا المقام الخطير ممنوع وحرام شرعاً - كما سيأتى -.

ومهما يكن من أمر فإن كان مقصوده من كلامه هذا (١) فكفره جلى بين مستغن عن أى بيان. قال الله عز وجل : ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ [فاطر: ٣]. وقال المولى عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ [الحج: ٧٣]. وقال - جلت عظمته - : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ ﴾ (٢) وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال الحق جل جلاله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٤٠]، ولقد أشار المولى عز وجل إشارة موجزة إلى الأفلاك والعناصر والجمادات والحيوانات والنباتات والآثار العلوية فى سورة لقمان فقال : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [لقمان: ١١] صدق الله سبحانه وتعالى.

والجدير بالذكر أن هذا المعنى - أعنى تفرد المولى - تعالى شأنه - بالخلق كان راسخاً ومستقراً فى أذهان الناس عامة حتى فى عقول المشركين العرب قال جل ذكره : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [لقمان: ٢٥، الزمر: ٣٨].

(١) كما هو الظاهر المتبادر وإن أنكر المكابر.

(٢) المفهوم من الخلق هنا، الخلق من المادة كخلق الإنسان من النطفة، والمستفاد من الأمر هو إيجاد الله تعالى شيئاً بأمره «كن» كإيجاد الأرواح.

ولم تكن هذه السخافة الجلية والخرافة العلية فى يوم من الأيام إلا من نصيب هؤلاء السفهاء الفلاسفة التى جعلتهم أمراء الحمير «قاتلهم الله أنى يؤفكون».

ها نحن نسلم أن زياداً لم يرد من كلامه هذا المعنى ولم يذهب إلى خالقنية العقول بالذات وموجديته بالاستقلال، قصارى ما قصده ونهاية ما اعتقده أن العقول شروط ووسائل للمخلوق كما قد يمكن أن يستفاد من كلام زيد «سواء كانت لها علاقة الخلق أو كانت واسطة فى الخلق» وهذا القدر لا مفر عن تسليمه لأنه قد أقر بذلك بل وأكثر من ذلك فى رسالة له حيث إنه جعل هذا المعنى مذهباً محققاً واختاره مشرباً صافياً، وهذا (جعل العقول وسائط) أيضاً كفر واضح وارتداد فاضح وكفى به كفراً وارتداداً لأن هذا المذهب يستلزم لزوماً بيناً أن القادر ذا الجلال الغنى المتعال تبارك وتعالى غير كاف للخلق والإيجاد وأنه محتاج ومفتقر إلى غيره فى الوساطة والآلية وبذلك يكون قد اعترف وأقر إقراراً صريحاً أن القدير المجيد ناقص فى الفاعلية وأن العقول العشرة متممة ومكملة له تعالى شأنه، أى كفر أفحش من هذا؟ وليس هذا كفراً واحداً فحسب بل مستنقع لكفريات متعددة، فعجز البارى - تعالى شأنه - كفر، وافتقاره إلى الغير كفر ثان، ونقصه كفر ثالث واستكمال بالغير كفر رابع، وعدم خالقيته بالاستقلال كفر خامس:

فكفر^(١) فوق كفر فوق كفر كأن الكفر من كثر ووفر
كماء^(٢) آسن فى نبتن دفر تتابع قطره من ثقب كفر^(٣)

(١) فيه توجيهان، الأول أن «من» بما بعده متعلق بالشطر الآتى وخبر كأن قوله «كماء» فمن على هذا للتعليل، والثانى أنها هى الخبر بعد تعلقها «بماخوذ» أو نحوه واللام فى الكفر للمهد أى كان كفره هذا مأخوذ من الكثر والوفر بإسقاط بعض الحروف منها.

(٢) ماء آسن، متغير الطعم والرائحة، النتن، نتن الشيء تننا وتنانة خبثت رائحته، دفر - الرائحة الكريهة المنبعثة من الإبط.

(٣) كفر بالفتح الجبل العظيم، قطر بالفتح جمع قطره، التابع، التواصل.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم أقول لو استقصيت وتتبع
لوجدت أن إichاءات تعدد الخالق من كلام زيد ما زالت متجلية، فتقرير «القول
الوسيط» وتمثيله بالشمس والقمر وترديده قيد «بالذات» مراراً وتكراراً، إن هذه
القرائن كلها توحى بوضوح أن زيدا إنما ينفى عن العقول الخالقية الذاتية دون
الخالقية المستفادة، وهذا القدر (الخالقية المستفادة) كاف لصدق كلمة الخالق «على
العقول فى الواقع ونفس الأمر، وإلا فالعلم، والسمع، والبصر، والحياة بل وجود
العالم نفسه منتف بذاته وخاص بحضرة الحق جل جلاله، بالرغم من ذلك قد
أسند العلم والسمع والبصر والحياة والوجود إلى غيره فى القرآن الحكيم فقال
المولى - جلّ وعلا - بالنسبة للعلم: ﴿وَإِنَّهُ لَدُوْ عَلِمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف : ٦٨]، وقال جل جلاله عن نسبة السمع والبصر: ﴿إِنَّا
خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [سورة
الإنسان، آية ٢].

وقال جل شأنه عن الحياة ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ
عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران : ١٦٩]، وقال المولى جل وعلا عن الوجود ﴿إِذَا
قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران : ٤٧] وهذه القضايا حقة وصادقة
بلا ريب، ولا شك أن حقائق الأشياء ثابتة ألا ترى أن استنارة القمر بنور الشمس - كما

اعتقد زيد - لا تعارض قول الله جل جلاله الذى مثل به زيد ﴿جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً﴾^(١)، (فالقمر نور مع أنه مكتسب من الغير).

ومن الواضح بمكان أن لفظ المجاز كما يقابل الحقيقة يقابل كذلك الذاتى غير أن الذاتى لا يكون إلا حقيقياً دائماً وأنه لا يفارق الحقيقة قط. فملكنا ملك مجازى أى حاصل بالعطاء الإلهى غير نابع من ذاتنا وليس معنى ذلك أنه باطل فى الحقيقة ونفس الأمر قال تعالى: ﴿فهم لها مالكون﴾ [يس - ٧١] وقال عز وجل: «وما ملكت أيمانهم﴾ [الأحزاب: ٥٠]، وبناءً على هذا عد ﴿واسأل القرية﴾ من المجاز لأن العلم والسماع والقدرة على الجواب التى يصح بها الاستفسار الحقيقى متفية هنا وبالعكس من ذلك ﴿سلهم أيهم بذلك زعيم﴾ حقيقة دونما أية ريبة لأن العلم والسمع والقدرة متواجدة هنا يقينا وإن كان مستمدة من المولى جل جلاله.

ولا يخفى على عاقل أن الحقيقة إنما تتوقف على الشبوت فى الواقع فحسب

(١) هذه الآية الكريمة نص صريح فى أن القمر مستنير أولاً فى ذاتها بأى طرق كان ثم ينير العالم وهو الراجح من جهة العقل أيضاً وإليه جنح المحققون منهم الإمام الرازى خلافاً لمن ذهب أن القمر إنما ينقل ضوء الشمس فحسب بدون استناره منه كما ظنه بعض الفلاسفة. ولكن هل القمر مظلم فى حد ذاته ويستنير بضوء الشمس؟ أقول أما هذه القضية فلا تنفيها لعدم ورود السمع بتكذيبها ولا نقطع بثبوتها لعدم قيام البرهان على تصويبها. والدوران ليس فى شيء من البرهان وإن ما زعموا أنه بديهى ثابت بالحدس كيف ولا قاطع بإبطال قول ابن الهيثم فى الأهلة وما ذكروه من حديث الخسوف فيجوز أن يكون ذلك لأن القادر ينزع منه النور متى شاء من دون أن تكون الحيلولة هى الموجبة له والمعية لا تفيد العلية بل هذا الذى لما ذكرنا هو المستفاد من ظواهر الأحاديث وقد رأينا كذبهم فى كسوف وقع على عهد رسول الله ﷺ لعشر خلون من شوال (العاشر من شهر شوال) مع أن قاعدتهم تقتضى بأن لا يقع إلا آخر الشهر إذ المقارنة لا تكون إلا إذ ذاك فلما ظهر لنا انتقاض الدوران فى الكسوف عسى أن يظهر أيضاً فى الخسوف على أن فى الباب احتمالات آخر لا يتكافئها الدليل وبالجملة ما لم يخبر عنه تراه مضطرباً هكذا إلى يوم القيامة فاستفده فإنه مهم نعم أفاد الإمام عبد الوهاب الشعرانى فى «ميزان الشريعة الكبرى» إجماع أهل الكشف على أن نور القمر مستفاد من نور الشمس فمن هذا الوجه نقول به والله تعالى أعلم (المؤلف قدس سره).

بصرف النظر عن أن يكون ذلك الوصف ذاتياً أو مستفاداً من الغير ولا يخفى على
أى عاقل ذلك التفاوت الحاصل فى استعمال الكلمة «تعرف» فى هذا الشعر:
هذا الذى تعرف البطحاء وطأته العُربُ تعرف من أنكرت والمعجم
حيث إن المعرفة استندت إلى البطحاء أولاً وهو مجاز وإلى العرب والمعجم
آخرًا وهو حقيقة.

لقد بعد عن المحجة البيضاء، إن الحقيقة لا تستلزم الذاتية وإلا لزم انتفاء خلق
الأشياء حقيقة عن الحق عز وجل بل يستحيل ذلك عليه تعالى - ولن تكون نسبة
الخلق إليه - تعالى شأنه - إذا إلا وهما مجازيًا، إذ الخالق إذا لم يفد الوجود حقيقة
(بذاته) فلم يكن خالقًا فى الواقع. فلو كان الأمر كذلك لم يصدق قوله تعالى :
﴿قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ [طه: ٥٠]. وقس على هذا شنائع
أخرى.

فلا شك إذا إن مثل هذا المجاز لا يتعارض مع إطلاق الحقيقة وصدقها كما لا
يتنافى مع ثبوت الوصف الواقعى، ومن هنا تبين جلياً أن تقرير زيد ينادى بأعلى
صوت أن العقول العشرة إنما تنفى عنها الخالقية الذاتية فحسب وإلا فهى خالقة فى
الواقع للعالم مثل القمر الذى ينير الأرض.

- وإن كانت هذه الخالقية مستمدة ومستفادة^(١) من الحق عز وجل - كما يستمد

(١) وأما أنى أخلق لكم من الطين كهينة الطير» [آل عمران: ٤٩]، فلا يخفى على ذى لب أن فيه
تبديل الجسم الطبيعى دون إيجاد الجسم التعليمى بل ذلك أيضاً أعنى زوال أبعاد وحدوث أخرى
إنما هو على طريقة الحكماء القائلين بالكم المتصل، وأما المتكلمون فلم يحدث عندهم فى الطين
شيء لم يكن ولم يزل عنه شيء قد كان وإنما انتقلت الجواهر الفردة من طول إلى عرض أو
بالمعكس مثلاً كما صرحوا به فى الشمعة وهذا هو معنى تصوير الملك الموكل بالرحم الجنين فيها
فليس إلا إيداء هيئات لأجزاء الجسم لا إيجاد لحم أو شحم أو عظم والله تعالى أعلم (المؤلف
قدس سره).

القمر من أنوار الشمس سبحانه وتعالى عما يشركون. وخلاصة القول: إن الاعتقاد بانعزال الباري - تبارك وتعالى - وانقطاعه عن تدبير أمر من الأمور أو تصرف شأن من الشئون أو إسناد خلق جوهر من الجواهر إلى غيره تعالى شأنه من الكفريات الخالصة التي لا يتطرق إليها من ريب ولا يحوم حولها من شك سواء قال بأنها متممة لإيجاد الباري تعالى أو لم يقل وهذا من أوضح ضروريات الدين وأجلها بل وأميزها من بينها وجلاءها مغن عن أى بيان.

ثبته - ولا يستبعد من زيد الفيلسوف أن يلجأ إلى بعض التحايلات الباردة في خضم الوسواس المقلقة والخواطر المتشعبة المزدحمة عليه فيقول «إنما قلت هذا كله على طريق الفلاسفة دون اعتقاد منى فى شيء من ذلك».

أقول: صحيح ما يقال لا تعدم الخرقاء الحيلة، وواضح تمام الوضوح أنه ما كانت هناك حالة إكراه واضطرار تدعو إلى كتابة هذه الأوهام الشيطانية. ومجرد الإتيان بكلمة الكفر - دون إكراه - كفر، وإن لم يكن بذلك اعتقاد فى القلب، ولقد صرح معظم العلماء فى هذا الباب بأنه لا يكفر لدى الخلق فحسب بل يكفر عند الله أيضاً لأنه متلاعب بالدين وعابث بعظمته - والعياذ بالله تعالى -.

فقد نص الإمام العلامة فقيه النفس فخر الدين الأوز جندى - رحمه الله تعالى - فى «الخانبة» رجل كفر بلسانه طائعاً وقلبه على الإيمان يكون كافراً ولا يكون عند الله مؤمناً وفى الحاوى من كفر باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان فهو كافر وليس بمؤمن عند الله . «وفى مجمع الأنهر» وجواهر الأخلاطى وهذا لفظ المجمع من كفر بلسانه طائعا وقلبه مطمئن بالإيمان فهو كافر ولا ينفعه ما فى قلبه لأن الكافر يعرف بما ينطق به من الكفر فإذا نطق بالكفر كان كافراً عندنا وعند الله تعالى، وفى «البحر الرائق» ، والحاصل أن من تكلم بكلمة الكفر هازلاً أو لاعباً كفر عند الكل، ولا اعتبار باعتقاده ومن تكلم بها خطأ أو مكرها لا يكفر عند الكل ومن تكلم بها عالماً عامداً كفر عند الكل.

وفى «الطريقة المحمدية» ، و«الحديقة الندية» التكلم بهما بوجه (الكفر) طائعاً من غير سبق اللسان عالمًا بأنه كفر (كفر) بالاتفاق وكذا الفعل ولو هزلاً ومزاحاً بلا اعتقاد مدلوله بل مع اعتقاد خلافه (بقلبه) فإنه يكفر عند الله تعالى أيضاً فلا يفيد (فى عدم الكفر) اعتقاد الحق (بقلبه) لأن ذلك جعل كفراً فى الشرع فلا تعمل النية فى تغييره إلى آخره ملخصاً.

أما زعمه بأن قوله إنما هو على طريق الفلاسفة فأقول صدق فيما قال ولسنا بقائلين أبداً إن قوله هذا على طريقة المسلمين فإن كلمة الكفر أيا كانت إنما تقال فى الأغلب على طريقة من طرق الكفار دون المسلمين - والعياذ بالله تعالى - فهذه الحيلة لن تنجيه من حكم الكفر ولن تنقذه من وعيده الشديد حاشا وكلا فليسال زيد هنا إذا كان يعتقد أنها من الكفريات فهل فى كلامه حرف يشير إلى رفضه وبرائته منها وهل هناك من كلمة يشم منها رائحة الكراهية والتنكر لها، لقد حاد عن الحق وأخطأ الصواب، لن تعثر أبدا على حرف يوحى بأنه ناقل أو حال لك عن غيره بل على العكس من ذلك تجد أنه أدرج تحت لفظ التحقيق، وفى «القول الوسيط» أشاد بهذه المضامين إشادة فجاء بكلمة «هذا التحقيق» وبهذه الملاحظة يكون قد افترض عواره وانكشفت سواته، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

حتى لقد صرح أئمة الدين بل وقد نص بمنهج المذهب (الحنفى المذهب) حضرة الإمام الربانى أبو عبد الله محمد بن حسن الشيبانى رضى الله عنه أيضاً فقال من قال بلسانه المسيح ابن الله ولم يأت بشىء يدل على حكاية قول النصارى لن يصدق وإن ادعى الحكاية ويحكم بينونة امرأته ولقد نقل العلامة بدر الدين رشيد الحنفى فى رسالة «الألفاظ المكفرة» عن الفتاوى الصغرى وغيرها فقال لو قالت للقاضى سمعت زوجى يقول المسيح ابن الله فقال إنما قلت حكاية عمن يقوله فإن أقر أنه لم يتكلم إلا بهذه الكلمة بانت امرأته، وفيها أيضاً قال محمد إن شهد الشهود أنهم سمعوه يقول المسيح ابن الله ولم يقل غير ذلك يفرق القاضى بينهما

ولا يصدقه، - سبحانه الله - لما أفتى العلماء بالبينة في هذه المسألة التي فيها احتمال كبير لإتيان الزوج بلفظ الحكاية وربما لم تسمعه المرأة أو الشهود.

فأنى ينجو من حكم الكفر شخص يُلطخ كتابه بنجاسة الكفر الصريح ويحليه بحلية هذا التحقيق؟ نسأل الله العافية لقد سئل سيدنا الإمام الأجل عالم المدينة مالك بن أنس رضى الله عنه عن شخص قال بأن القرآن مخلوق فقال مالك كافر اقتلوه فقال إنما حكيت عن غيرى قال إنما سمعناه منك ففى «الإعلام بقواطع الإسلام» سأل رجل مالكا عمن يقول القرآن مخلوق فقال مالك كافر اقتلوه فقال إنما حكيت عن غيرى فقال مالك إنما سمعناه منك.

بل لقد صرح علماء الدين المتين بأن ذكر هذه الكفريات أو أمثالها حرام وغير مشروع وإن كان مقتربا بلفظ الحكاية والنقل ويستحق الحاكى - وإن كان مصرحا بالنقل - العقاب والتأديب إلا إذا كان هناك غرض محمود ومهم عند الشرع مثل تحذير الخلق أو إظهار الحق أو إبطال الباطل أو لأجل أمور الدعوى والشهادة حتى يقتل قائلها أو يعاقب وغيرها من الدواعى الدينية الضرورية.

فلإذا توفرت هذه الضرورات أو أمثالها واقتربت الحكاية بالتبرى منها والاستنكار لها والكراهية منها فلا حرج حيثئذ.

قال الإمام العلامة القاضى عياض المالكي - قدس سره - فى كتابه «الشفاء» وقال العلامة شهاب الدين أحمد الخفاجى الحنفى - رحمه الله تعالى - فى شرحه «نسيم الرياض» أما ما ذكرها على غير هذا الوجه من الرد والإبطال ونحوه مما مر على وجه الحكايات والخوض فى قبيل وقال وما لا يعنى فكل هذا (المحكى) ممنوع (غير جائز شرعا) وبعضه أشد فى المنع والعقوبة من بعض فما كان من قائله الحاكى له (عن غيره) على غير قصد ومعرفة بمقدار ما حكاه ولم يكن عادته (وإنما وقع منه نادرا) ولم يكن الكلام الذى حكاه من البشاعة حيث هو ولم يظهر على حاكيه استحسانه واستصوابه زجر (وبخ) ونهى عن العود إليه وإن قوم ببعض

الأدب فهو مستوجب له وإن كان لفظه من البشاعة حيث هو كان الأدب أشد إلى آخره ملخصاً».

أقول: ولم لا نحكم بالحرمة فيما نحن فيه؟ وقد صرح العلماء بأن رواية الحديث الموضوع بغير رد واستنكار محرمة شرعاً وهذا ما أخذ به على الحافظين المعاصرين «أبى نعيم» وابن مدنة» ولا يخرج الراوى عن عهده ولا تبرأ ذمته بمجرد سرد الرواية كما صرح به الشمس الذهبى وغيره من أئمة الشأن فلما كان الحكم هنا بهذا القدر من الشدة بالرغم من خفته نسبياً مع ما نحن فيه، فإن المئات من الأحاديث الموضوعة مضامينها صحيحة ونافعة ألا تحرم حكاية هذه الاختلافات الملعونة المهلكة؟ وهل يحل ذكر هذه الأوهام المضادة المتنافية تماماً مع أصول الإسلام؟ وهل يشرع نقل هذه السموم الفتاكة الموبقة؟ نسأل الله العافية.

بل لقد استنكر كثير من الأئمة الناصحين - رحمه الله تعالى أجمعين - وكرهوا إشاعة هذه الخرافات وأمثالها بل الأخف منها بكثير ولو على سبيل الرد والإبطال وهذا أحد الأسباب التى دفعت العلماء إلى شدة الطعن والرد على كلام المتأخرين من العلماء كما فصل بعضه الفاضل على القارى فى شرح الفقه الأكبر حتى قاطع سيدنا الإمام الهمام عماد السنة أحمد بن حنبل رضى الله عنه سيدنا العارف بالله إمام الصوفية حارث المحاسبى رضى الله عنه، وقال ويحك أأست تحكى بدعتهم أولاً ثم ترد عليهم أأست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر فى الشبهة فيدعوهم ذلك إلى الرأى والبحث والفتنة، ولا شك أن الرد على المبتدعين من أهم الفرائض إذا دعت الضرورة إلى ذلك، وها هو الإمام أحمد نفسه يؤلف كتاباً فى الرد على الجهمية وفى حديث عند الخطيب وغيره، أنه عليه السلام قال : «إذا ظهرت الفتن أو قال البدع وسب أصحابي فليظهر العالم علمه فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً».

والحاصل: أنه ما من شك أن كلتا العبارتين كلمتا كفر صريح وليس هناك مبرر مقبول لإدراجهما فى كتبه، والله المستعان.

الرد على القول الثانى والثالث والرابع

ونفس الحكم الذى سبق بيانه مفصلا فى القول الأول عائد فى هذه الأتوال أيضاً حيث إنه قد أقر فيها بقدّم الهيولى، والصورة الجسيمة والصورة النوعية والعقول العشرة وبعض النفوس وهذا كله من الكفريات بدون ريب فقد نص أئمة الدين أن من اعتقد غير الله أزليا فقد كفر بإجماع المسلمين.

ففى «الشفا» و«نسيم الرياض» من اعترف بالهية الله تعالى ووحدانيته لكنه اعتقد قديماً غيره (أى^(١)) غير ذاته وصفاته إشارة إلى ما ذهب إليه الفلاسفة من قدم العالم والعقول) أو صانع للعالم سواه (كالفلاسفة الذين يقولون إن الواحد لا يصدر عنه إلا الواحد) فذلك كله كفر (ومعتقده كافر بإجماع المسلمين) كالإلهيين من الفلاسفة والطبائعين إلى آخره ملخصاً.

وقال يقطع بكفر من قال بقدّم العالم أو بقائه أو شك فى ذلك على مذهب بعض الفلاسفة (ومنهم^(٢)) من ذهب لغيره وقد كفرهم أهل الشرع بهذا لما فيه من تكذيب الله ورسله وكتبه) إلى أن قال فلا شك فى كفر هؤلاء قطعاً إجماعاً وسمعاً، إلى آخره ملقطاً.

(١) أقول توضيح لا توجيه فإن صفاته سبحانه وتعالى ليست عندنا غيره كما هى ليست عينه (المؤلف قدس سره).

(٢) أقول، أو تكون البعضية راجعة إلى الشك فى إشارة إلى ما حكى عن جالينوس أنه قال فى مرضه الذى توفى فيه لبعض تلامذته اكتب عنى أى ما علمت أن العالم قديم أو محدث وأن النفس الناطقة هى المزاج أو غيره قد طعن فيه أقرانه بذلك حين أراد من سلطان زمانه تلقيبه بالفيلسوف - ذكره فى شرح المواقف - أقول، إن كان الطعن تردد الأخير فهو بذلك حرى وجدير وإلا فمن العجب أن معتقد القدم يسمى فلسفياً دون الشاك مع أن جهل ذلك مركب وجعل جالينوس بسيط (*) فإن كان مثل هذا الجهل لا يتنافى حكمة الحكم بالبسيط أولى به إلا أن يقال إن الفلسفى هو المتناهى فى الخبائة وذلك فى المركب (المؤلف قدس سره).

(*) الجهل البسيط عدم العلم عما من شأنه أن يكون عالماً والجهل المركب عبارة عن اعتقاد جازم غير مطابق للواقع، المعجم الوسيط، محمد جلال رضا.

ويقول العلامة ابن حجر الهيتمي في «الإعلام»، اعتقاد قدم العالم أو بعض أجزائه كفر كما صرحوا به وفيه أيضاً «من المكفرات القول الذي هو كفر سواء أصدر عن اعتقاد أو عناد أو استهزاء فمن ذلك اعتقاد قدم العالم» إلى آخره ملخصاً.

وفي «طوالع الأنوار من مطالع الأنظار»، القول بالذات القديمة كفر وفي «شرح المواقف»، إثبات المتعدد من الذوات القديمة هو الكفر وفي «شرح الفقه الأكبر»، من يؤول النصوص الواردة في حشر الأجساد وحدث العالم وعلم الباري بالجزئيات فإنه يكفر.

وفي «البحر الرائق» نقلاً عن «جمع الجوامع» وشرحه من خرج ببدعة من أهل القبلة كمنكرى حدوث العالم فلا نزاع في كفرهم لإنكارهم بعض ما علم مجيء الرسول ﷺ به ضرورة إلى آخره مختصراً. وفي «رد المحتار» عن «شرح التحرير» للعلامة ابن الهمام، لا خلاف في كفر المخالف في ضروريات الإسلام من حدوث العالم وحشر الأجساد ونفى^(١) العلم بالجزئيات وإن كان من أهل القبلة المواظب طول عمره على الطاعات وكذلك نقل الإمام أبو زكريا يحيى النووي في «الروضة»، والفاضل السيد أحمد الطحطاوي في هامش «الدر المختار».

ومهما يكن من أمر فإن كتب الأئمة ومؤلفاتهم زاخرة بهذه النصوص وأمثالها ولا مطلق في الاستقصاء.

وقد اتفقت كلمة المبتدعين أنفسهم على هذا الحكم كما يرشدك إليه قوله،

(١) أقول هكذا وقع في الكتاب والصواب إسقاط النفي فإنه هو الكفر إجماعاً والضروري هو الإثبات وكأنه رحمه الله تعالى لما أراد تمثيل مخالفة الضروريات وكان إليه سيلان أحدهما بتعميد المخالفات والأخرى بذكر الضروريات فالتبست في البيان إحداها بالأخرى فسلكت الأخرى في الأولى والأمر واضح فليتب (المؤلف رحمه الله تعالى).

بإجماع المسلمين، قال الإمام فخر الدين الرازى رحمه الله تعالى فى «المحصل»،
اتفق المتكلمون^(١) على أن القديم يستحيل إسناده إلى الفاعل^(٢).

وقد اجتمعت كلمة أهل الملل عامة على حدوث جميع الأجسام مع أعراضها
حتى اليهود والنصارى أيضاً يتفقون فيه معنا، ففى «شرح المواقف»، الأجسام
محدثة بذواتها الجوهرية وصفاتها العرضية وهو الحق وبه قال المليون كلهم من
المسلمين واليهود والنصارى والمجوس. ولا شك أن إيراد زيد هذه المعانى الكفرية
فى مواطن الاستشهاد والاستناد وإطلاقه عليها اختيار المذاهب وتحقيق المشارب
لدليل صريح على اطمئنانه إليها وقبولها منه وإن تنازلنا عن هذا وافترضنا أنه لم
يرض بها فيما أنه أورد هذه المعانى الفاسدة بغير إكراه قد استحق حكم الكفر
وتذكر كل ما قدمنا من الكلام على القول الأول نجد هنالك ما فيه الغناء وعليه
المعول.

مستقع الضلالات

القول الخامس

هذا القول خليط عجيب ومعجون مركب من ضلالات عديدة وجهالات كثيرة
بل هذا القول معجون الفلاسفة قرة العيون. إن زيدا المسكين قد آمن بأوهام الباقر

(١) هو لفظ يعم جميع النظار من أهل القبلة المقتدرين على إثبات عقائدهم التى دانوا بها الله تعالى
بإيراد الحجج وإدحاض الشبه سواء كانوا مضيين كمعشر أهل السنة والجماعة - حفظهم الله
تعالى - أو خاطئين كمن عداهم كما صرح به فى المواقف وغيرها فالجواب «اتفق المسلمون».

(٢) يعنى الفاعل المختار إذ لا فاعل موجبا - عندنا - وهذا هو الذى قالوا إنه أجمع عليه المتكلمون أما أن
القديم لا يمكن إسناده إلى الفاعل مطلقا حتى الموجب لو كان فمسلك خاص للإمام الرازى لم يوافقه
عليه كثيرون حتى قالوا: إن القول يقدم العالم إنما ساغ للفلاسفة لقولهم بالفاعل الموجب ولولا ذلك
وأمنوا بالفاعل المختار لأذعنوا بحدوث العالم عن آخره وكذا إيجاب المسلمين حدوث كل مخلوق
لقولهم بالفاعل المختار ولولا ذلك لقالوا بالقدم، قلت المقصود نفى الإجماع على التعميم وهو حاصل
وإن كان فى الكلام كلام والله سبحانه وتعالى أعلم (المؤلف قدس سره).

(باقر داماد الشيعى فلسفى النزعة) واطمئن إليها وصدقته فى أباطيله المخيلة واستطاب تلك الكفريات واستحلها، وقد غفل عن تلك الشناعات العظيمة الهائلة التى تستتبع هذه الأوهام.

فأقول وبحول الله أصول، أولاً يلزم على هذا الزعم قدم جميع الأنواع بلا استثناء وذلك حيث إن مجرد الإمكان الذاتى لما كان ملاك الفيضان فى الطبائع المرسله والإمكان الذاتى - أى كونه فى محيط القدرة الإلهية - أزلى بلا شك، وإلا لزم الانقلاب، ولما كان من المسلمات التى لا مرأى فيها ألا يخل فى جانب المبدئ - تبارك وتعالى - ومن هنا وجب أن يكون كل نوع قديماً أزلياً، وهذا الزعم يستتبع بالتالى جميع الأصول الفلسفية الباطلة من قدم الهيولى وقدم الصورة الجسيمة وقدم الصورة النوعية وقدم جميع الأشخاص المندرجة تحت الأنواع وقدم بقية الأفراد المنتشرة، ولا شك أن قدم الأنواع والأشخاص يستلزم قدم الأعراض اللازمة على التفصيل المشار إليه كما لا يخفى.

فها هى الأصول الفلسفية المزخرفة قد استتبع بعضها البعض حتى تجمعت كلها وكان قد اكتفى الفيلسوف المتنوع بقيد المادة والمدة، ومما زاد الطين بلة من المتفلسف التابع أنه أضاف صراحة بأن مجرد الإمكان مستلزم للفعلية هيئات ولا عجب فى ذلك من المتنوع حيث إنه من أذئاب الفلاسفة ومحبي السفسطة من قديم - ومن لم يستغن بالقرآن فلا أغناه الله - إنما العجب كل العجب من هذا التابع الذى يدعى التسنن ثم يركب هذا التلون والتفنن نسأل الله الثبات على الإيمان والسنة.

ثانياً: ومما هو أشد من ذلك وأقبح مما سبق أن قوله هذا قد استلزم انحصار القدرة الإلهية فى الأنواع الموجودة بالفعل فقط أما الأنواع التى لم تخلق بعد فإن المولى عز وجل لا يكون قادراً عليها بالتالى؛ إذ لو كان مقدوراً لكان ممكناً ولا شك أن مجرد الإمكان فى الطبيعة المرسله (المطلقة) يستلزم الفيضان عنده - وانتفاء اللازم يدل دلالة قاطعة على انتفاء الملزوم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وهذه الشناعة الخبيثة كفر خالص عند الإسلاميين دوغما أية ريبة، وربما لا يستسيغه الفلاسفة أيضاً لأنهم يفرقون بين الكلى معدوم الأفراد والكلى ممتنع الأفراد (مستحيل الأفراد) فالكلى معدوم الأفراد وأقسامه (تفاسيمه) قسم لقسيم الكلى ممتنع الأفراد - كمثّل الحروف العاملة وأقسامها قسم لقسيم الفعل أى الحرف المطلق - ولا بد من المنافاة بين الشيء وقسيمه كما صرح فى أسفارهم.

فيا للعجب! إن كان باقر قد غفل عن هذا فقد كان المتبقر عاقلاً نبيها ولكن صدق ربنا - تبارك وتعالى : ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ثالثاً: إن قول التابع والمتبوع - عدم البخل فى جهة المبدأ مستلزم للفيضان - لقول معارض لمبادئ الإسلام ومضاد لأصول السنة المطهرة. فإن مما اعتقد وآمن به أهل السنة والجماعة أن المبدء - تبارك وتعالى - جواد كريم وأنه أكرم الأكرمين - جل جلاله وتقديس فعاله - ومع هذا لا يجب على المولى عز وجل شىء عندهم، والحق جل جلاله كان جواداً قبل أن يخلق العالم وهو جواد ولو لم يخلق العالم أبداً ولا يتطرق إليه عيب بعدم خلقه ولا يتعرض كماله الأكمل لنقص بعدم الإيجاد والخلق، فلا يجب عليه إيجاد شىء أو إعدامه.

قال الحق جل جلاله : ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٥-١٦].

وقال تعالى شأنه : ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وهذا واضح جلى عند كل من نور الله بصيرته ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ولا شك أن ذلك الاستلزام ناشئ من تلك الفلسفة الملعونة التى تجعل القادر المختار - تعالى شأنه - فاعلاً موجباً وهذا الاستنتاج مبنى على تلك البدعة المنحرفة التى تجعل إيجاد العالم سبباً لكما له، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

رابعاً: وما هو أقبح وأشنع قوله «فإن صدر عنه غير الأحق وتخلف الأحق لزم ترجيح المرجوح» سبحانه الله ! فلا أحق هناك، وليست عقولكم السخيفة بحاكمة على القادر الحميد الفعال لما يريد، وليس عندنا مرجح سوى إرادة المولى تعالى، وإن سلمنا أن هناك مرجحاً سوى إرادته فلا حرج عليه بعد، قال تعالى : ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وقال تعالى شأنه: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١]، وقال جل جلاله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

وبكلام أوضح، إن خلاصة ما ذهب إليه أهل السنة في هذا الباب أن جميع المقدورات متساوية إلى حضرة المولى - تبارك وتعالى - ولا شيء من الاستحقاق لأحد من ذاته فلا راجح ولا مرجوح هناك.

يقول العلامة السنوسى فى «شرح الجزائرية»، إن الذى أوقع المعتزلة فى الضلالات كإيجاب الثواب وفعل الصلاح والأصلح على الله تعالى، اعتمادهم فى عقائدهم على التحسين والتقيح العقليين وقياسهم أفعال الله تعالى وأحكامه على أفعال المخلوقين، وأحكامهم من غير أن يكون فى ذلك جامع يقضى التسوية فى الأحكام والذى أجمع عليه أهل الحق أن الأفعال كلها متساوية بالنسبة إلى تعلق قدرة الله تعالى وإرادته بها^(١).

إنما الترجيح هناك بمجرد الإرادة من ذلك القدير المجيد - عز مجده - فما تعلقت إرادته ترجح، ففى «شرح الطوالع»، تخصيص بعض المقدورات بالتحصيل

(١) أى فيقدر على كل شيء ويفعل ما يريد لا ترجيح قبل إرادته وإنما الترجيح بإرادته فهى موجبة الرجحان لا هى محرك الإرادة هكذا ينبغي أن يفهم هذا المقام وقد رأينا تصديق ذلك فى تعبى العطشان وطريقى السالك، فأراد الله سبحانه أولى بذلك (المؤلف قدس سره).

وبعضها بالتقديم والتأخير لا بد له من مخصص لأن نسبة جميع المقدورات إلى ذاته متساوية وليس هو نفس العلم فإنه تابع للمعلوم ولا القدرة فإن نسبتها إلى الجميع على وتيرة واحدة فلا بد من صفة أخرى من شأنها التخصيص وهى الإرادة إلى آخره ملخصاً.

وإن افترضنا أن هناك مرجحاً سوى إرادة المولى عز وجل فاعلم أنه لا يجب على المولى المقتدر جل جلاله اتباع هذا المرجح وله أن يجعل الراجح مرجوحاً ويخلع على المرجوح خلعة الوجود ولا حرج عليه البتة.

ففى «شرح المواقف» اعلم أن الأمة قد أجمعت إجماعاً مركباً على أن الله تعالى لا يفعل القبيح ولا يترك الواجب فالأشاعرة من جهة أنه لا قبيح منه ولا واجب عليه وأما المعتزلة فمن جهة أنه ما هو قبيح يتركه وما يجب عليه يفعله وإنا قد بينا فيما تقدم أنه تعالى الحاكم فيحكم بما يريد ويفعل ما يشاء لا وجوب عليه كما لا وجوب عنه ولا استباح منه «إلى آخره ملقطاً».

يقول الشيخ الناصح محمد الأفندى البركللى فى «الطريقة المحمدية» وسيدى العارف بالله عبد الغنى النابلسى فى شرحه «الحديقة الندية» لا يلزم عليه تعالى شىء من فعل صلاح أو أصلح أو فساد أو أفسد بل هو الفاعل العدل المختار «ويخلق الله ما يشاء ويختار» إلى آخره مختصراً.

وفى شرح «العقائد النسفية» ليت شعرى ما معنى وجوب الشىء على الله تعالى إذ ليس معناه استحقاق تاركه الذم والعقاب وهو ظاهر ولا لزوم صدوره عنه تعالى بحيث لا يتمكن من الترك بناءً على استلزامه محالاً من سفه أو جهل أو عيب أو بخل أو نحو ذلك لأنه رفض لقاعدة الاختيار وميل إلى الفلسفة الظاهرة العوارى.

فانظر فى هذه العبارة كيف تكفلت بالرد على هذا الفلسفى الجديد بالإضافة إلى إخوانه القدماء واستأصلت توهم البخل على المولى عز وجل من جذوره ولله

الحجة السامية وهذه المعانى الرائعة التى أفادها العلماء فرداً فرداً، جميعها مستفادة من تلك الآيات الكريمة التى تلاها الفقير قبل قليل.

ثم أقول: وإن صرفنا النظر عن اللتيا والتى فإن هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] وحدها كافية لاستئصال هذه الشبهة وأمثالها حيث إن المرجوح شئ وكل شئ مقدور، ولا معنى للقدرة إلا صحة الفعل والترك منه أى لا حرج عليه تعالى فى حال من الأحوال سواء فعل أو لم يفعل.

ففى «الطوابع» القدار الذى يصح منه أن يفعل المقدور وأن لا يفعل إلى آخره فهل يعقل بعد هذا من عاقل أن يلزم ترجيح المرجوح على جناب البارى تعالى شأنه وهل تسوغ هذه التقولات الباطلة على القادر المختار جل جلاله فى شريعة من الشرائع؟

وقبل أن نخوض فى مبحث آخر نقف هنا أولاً وقفة تساؤل، ونسأله ما هو المعنى المقصود من كلام زيد - لزم ترجيح المرجوح - هل يقصد من ذلك الاستحالة الذاتية؟ فإن قصد هذا فلا شك فى بطلان هذا الوهم بل بطلانه من أبين البديهيات لأن الاستحالة الذاتية - لو كانت - لكانت بالنسبة لقدراتنا القاصرة الباطلة التى تزول وتفى أما بالنسبة إلى تلك القدرة الباقية التامة الكاملة الدائمة فلا مجال لاستحالة الذاتية هناك فهذا ما يتعلق بالاستحالة الذاتية، فإن كان قصده أنه مستحيل من جهة كونه عيباً فى حقه تعالى فذلك أيضاً باطل كسابقه إذ فيه قياس الغنى الحميد على العبد المخلوق العاجز وذلك لا يجوز فى عقل عاقل وأيضاً فيه إعراض عن مئات من النصوص القرآنية ألا ترى أن أفعالنا منها ما يحسن ومنها ما يقيح أما فعله سبحانه وتعالى فكله جميل دائماً لو فعلنا ما يفعل^(١) المولى تبارك

(١) ولله در من عبر عن هذا المعنى الإيماني الجميل بهذه الأشعار الرائعة:

فديتك قد جبلت على هواكا	ونفسي لا تنازعني سواكا
أحبك لا ببعضى بل بكلى	وإن لم يبق حبك لى حراكا
ويقيح من سواك الفعل عندى	وتفعله فيحسن منك ذاكا

(محمد جلال رضا).

وتعالى تعرضنا للنقاش والمحاسبة ولو فعل هو الفعل الذي نفعل نحن فلا حرج عليه ولا نقاش، ألا ترى أنك لو قتلت مسلماً لأجل كافر لاستوجبت العقاب والعتاب وقد غلب الله تعالى الكفار على المسلمين مراراً ومكثهم من قتلهم فلا شيء عليه ولا لوم على فعله تعالى.

بالله عليك إن هذا الموضع ينبغي أن يجيش قلب المؤمن فيه بحجة المولى عز وجل ويمتلاً فؤاده بعظمته سبحانه وتعالى.

إن شأن الجميل كله لعجيب وكل فعل يصدر من الجميل حسن وجميل أن الملابس الوسخة على جسم الإنسان القبيح لبشعة فإن ارتداها جميل فلا تسأل عن بهجته وعن جماله (ولم نقصد التشبيه من هذا المثال وإنما قصدنا التقريب ورائفهم) ولله المثل الأعلى عياذ بالله، لئن أدخل المولى عز وجل عبده المسلم النار - والعياذ بالله - وسئل هذا العبد المسلم ما رأيك في معاملة ربك معك بهذا، فلا شك أنه يبادر بالقول قد عدل ربي وأحسن فيما فعل، ولكن عافيتك أوسع لي - خلاصة هذه التفاصيل، أن قول زيد هذا مستنقع لأنواع أنواع الضلالات والجهالات ومنيع للفلسفة والاعتزال، نسأل الله العافية ولا حول ولا قوة إلّا بالله العزيز الحكيم.

القول السادس

وفي القول السادس قد نقل فيما نقل، أن العقول العشرة مقدسة عن جميع النقائص منزهة عن جميع القبائح وإن علمها تام ومحيط إحاطة شاملة بحيث لا تخفى عليها ذرة من ذرات العالم بل لا يمكن خفاء شيء منها على العقول وما من شك أن هذا الوصف بهذا الشمول والكمال خاص بحضرة المولى عالم الغيب والشهادة جل جلاله قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس: ٦١]. ونسبة هذا الوصف إلى غير المولى عز وجل كفر بلا شك، وليتأمل المسلم في قوله بعدم الإمكان ليتأكد من الكفر الذي يتجلى منه،

ولا ريب أن هذا معارض لمئات من النصوص القرآنية، قال الحق جل جلاله ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدر: ٣١] وقال تعالى شأنه: ﴿إِلَيْهِ يُرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [فصلت: ٤٧]، وقال المولى عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الملك: ٢٥-٢٦]. وقال جل شأنه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى حكاية عن الملائكة: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

سبحان الله، وقد قال بعض المتفلسفة إن العقول العشرة عبارة عن الملائكة وإن هذا إلا كذب محض وافتراء خالص لأن الأوصاف التي يسندها هؤلاء السفهاء إلى هذه العقول لا علاقة لها بأوصاف الملائكة أصلاً لا من قريب ولا من بعيد ومن أكذب ممن كذبه القرآن نفسه، ألا! إنما هي من أوهام هؤلاء السفهاء التي لا وجود لها ألبتة.

﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَّا أُنْزِلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣] وإن سلمنا أنها عبارة عن الملائكة وتخيلنا أن كفار اليونان قد أفرطوا في شأن الملائكة إفراطاً وغلواً فيها نزهدهم عن أوصاف الخلق كالمشركين العرب الذين قد أفرطوا في شأن الملائكة حيث جعلوهم بنات الله.

فلننظر كيف كذبت هذه العقول نفسها هؤلاء السفهاء وكيف تعترف بجهلها وتقر بعجزها في حضرة المولى جل جلاله وكيف تقدس وتسبح لله الواحد القهار صدق الله تعالى: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢] وفي «الإعلام بقواطع الإسلام» من ادعى علم الغيب في قضية أو قضايا ل يكفر ومن ادعى علمه في سائر القضايا كفر.

وفيه أيضاً نقلاً عن علماء الحنفية فى فصل الكفر المتفق عليه، أو وصف محدثاً بصفاته أو أسمائه. ومهما يكن من أمر فإن حكم هذه القضية واضح وبين، وإنما الأمر الذى يدعو إلى التأنى والتريث هو تقييد زيد كلامه هنا بـ «عندهم» الذى يدل صراحة على الحكاية والنقل.

أقول ومع غرض النظر عن هذا فإن جملة «لا يمكن أن لا يعلم العقل الأول مثلاً» كفر جلى وغير مندرج تحت الحكاية والنقل بل هو استنتاج وتفريع من زيد على التنزه التام السابق المنقول، كما يشهد به سوق العبارة ولا ينفعه قيد «عندهم» لأنه قد اعترف وأقر بعلم المجردات بالجزئيات المادية على سبيل الجزئية ووصفه بأن هذا هو المذهب المحقق ثم استدل على هذا الزعم بالقول السابق المنقول وعلى هذا لم يبق ذلك فى موطن النقل والحكاية بل تحول إلى محل الاعتماد والتعويل، وبالإضافة إلى ذلك قد نصب نفسه للدفاع عنه وانتدب للانتصار له فهو محام عنه ومتنصر له دع عنك الرد عليه والاستنكار له ولا شك أن هذه القرائن من أبين وأوضح الأمارات التى تدل على الرضا والقبول، كما لا يخفى على عاقل فضلاً عن فاضل، وزيادة على ذلك فإننا قد حققنا من قبل أن سرد هذه الأقوال وأمثالها ولو بتصريح الحكاية والنقل غير مشروع شرعاً إلا إذا كان مشفوعاً بالرد ومقروناً بالاستنكار.

وبعد اللتيا واللتى فلا يحوم شك فى شناعة هذا القول وبشاعته، فتدبر تدر.

القول السابع

لقد أثار زيد هذا الكفر البين فى القول السابع، حتى تجلى كالشمس فى منتصف النهار، وقد خلع هنا رداء الحياء عن وجه الرياء فجعله حقاً مبيّناً وعده فى أقوال المحققين، فإليك ما كتب «إن العدم الزمانى ليس عدماً فى الواقع والحقيقة،

فكل ما وجد وما سيوجد لم يكن معدوماً قط ولن يعدم أبداً، قصارى ما هنالك أنه لم يكن أى كان مخفياً وقد عدم أى قد خفى وإلا فلا ينفك الوجود عنه حقيقة فى حال من الأحوال فى الواقع ونفس الأمر إنا لله وإنا إليه راجعون.

إن الشناعات الشديدة التى تستتبع هذا القول والقبايح التى تستلزم هذا الزعم منفلة عن نطاق العدو خارجة عن إطار الحصر، غير أن المثل مشهور ما لا يدرك كله لا يترك كله، فأقول وبالله التوفيق أولاً: إن مفاد هذا القول ومضمونه معارض لكثير من النصوص القرآنية الصريحة فمنها قال المولى جل جلاله ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٧] بيد أن زيد المتفلسف يقول كان ولكن فى ستر الحجاب، وقال الله تعالى شأنه: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ﴾ [النجم: ٥٠ - ٥١] ولكن يقول هذا المتفلسف بقى وأن الأرواح مرتبطة بالأبدان فى الواقع ونفيس الأمر غير أنه خفى عن أنظارنا، ويقول الرب تبارك وتقدس: ﴿كُلٌّ مِّنْ عَلَيْهَا فَأَن * وَيَقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]. ويقول متفلسفنا هذا سيبقى الجميع، كل فى الحجاب والستار وهو فى التجلى والظهور.

وهناك مئات من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة أمثال ما تلونا الآن التى لن يتسنى عنها الجواب من زيد أبداً، إلا أن يلجأ إلى التأويلات البعيدة أو يلوذ بأذيال التعسفات التى لا تسمن ولا تغنى من جوع فيقول مثلاً فى كل موطن من القرآن الكريم أو السنة المطهرة يتحدث عن الخلق والإيجاد أو الإبداع والتكوين أنه بمعنى الظهور والإظهار وكذلك فى الإمامة، والإهلاك والإفناء والإعدام أو العدم والفناء والموت والهلاك بأنها محمولة على معنى التغيب أو الغيوبة ومن الواضح بمكان أن مثل هذه التصرفات الخائنة فى النصوص الشرعية تبديل بحت لا علاقة له بالتأويلات المشروعة من قريب أو بعيد ولا يسانده العرف أو اللغة ولقد ركب الفلاسفة الأشقياء هذا النوع من التحريف المعنوى نفسه فى

مواطن من القرآن العظيم، فالجنة عندهم عبارة من اللذة النفسانية والنار كذلك عبارة عن الألم الروحاني، ينظرون إلى «تطلع على الأفئدة» ويهملون «في عمدة ممددة» - والعياذ بالله - وليس بيعيد عنهم ذلك اليوم العظيم يوم يدعون إلى نهار جهنم دعا، فيقال لهم، أفسحر هذا أن أنتم لا تبصرون، وحيث لا سيدوقون وبال هذه التأويلات الباطلة، فانتظروا إني معكم من المنتظرين.

ليس هو وحده في مستنقع هذا التأويل المتدع فحسب بل المبتدعون جميعا بأسره في كل مكان وزمان إنما يتلاعبون بالنصوص الشرعية نفس التلاعب، وما منشأ الضلالة وأصل البدعة إلا مثل هذه التأويلات الباطلة، فقيما قالت المعتزلة في قوله جل جلاله ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨] قَالُوا إِنَّمَا الْمَقْصُودُ مِنَ الْوَزْنِ هُوَ الْامْتِحَانُ فَلَا مِيزَانَ بِالتَّالِي وَفِي قَوْلِهِ جَلْ جَلَالَهُ: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢- ٢٣] إِنَّمَا الْمَرَادُ مِنَ النَّظَرِ هُوَ الْإِنْتَظَارُ وَالرَّجَاءُ فَلَا رُؤْيَا لِلْمَوْلَىٰ عَزَّ وَجَلَّ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْجَهَالَاتِ الْكثِيفَةِ وَالضَّلَالَاتِ الْخَسِيفَةِ، فَهَلْ نَفَعَتْهُمْ هَذِهِ التَّأْوِيلَاتُ وَهَلْ أَنْقَذَتْهُمْ تِلْكَ التَّعْسِيفَاتُ مِنْ لِقَابِ الْبِدْعَةِ كَلَّا، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ تَأْوِيلَاتِ الْمُعْتَزَلَةِ بِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْوَزْنِ هُوَ الْامْتِحَانُ وَأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ النَّظَرِ هُوَ رَجَاءُ الثَّوَابِ، نَقُولُ إِنَّ هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ الْإِعْتَزَالِيَّةَ أَخْفَ بِكَثِيرٍ مِنْ تِلْكَ الْأَبَاطِيلِ وَأَقْرَبَ إِلَى الصَّوَابِ مِنْهَا بِدَرَجَاتٍ بِخِلَافِ هَذِهِ التَّحْرِيفَاتِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي يَضْطَرُّ إِلَيْهَا هَذَا الْمُتَفَلِّسُ لِتَقْوِيمِ قَوْلِهِ الْمُنْعَرَجِ وَتَهْذِيبِ مَذْهَبِهِ الْمَعْوُجِ، كَمَا لَا يَخْفَى وَاللَّهِ الْهَادِي.

ففي «الشفاء الشريف» في الحديث عن الباطنية وغيرهم من الغلاة، زعموا أن ظواهر الشرع ليس منها شيء على مقتضى ومفهوم خطابها وإنما خاطبوا بها الخلق على جهة المصلحة لهم إذ لم يمكنهم التصريح لقصور أفهامهم فمضمون مقالهم إبطال الشرائع وتكذيب الرسل والارتباب فيما أتوا به إلى آخره ملخصاً.

وقد اجتمعت كلمة أهل السنة والجماعة أن النصوص تحمل على ظواهرها عند

خلوها عن القرائن وأن التأويلات فيها محرمة بشراً وغير مجدية، كما صرح به في كتب العقائد متناً وشرحاً.

ثانياً: لما كان البقاء في وعاء الدهر وجوداً على وجه الحقيقة وكانت الأعدام الزمانية مجرد حجاب وخفاء لزم بالتالي عجز المولى جل جلاله عن إعدام موجود ولزم تفلت المخلوق عن قبضة الخالق فقصارى ما يستطيع هو تغييره وإخفائه دون محوه عن صفحة الدهر ورفعته عن الواقع لأنه مستحيل الوقوع ولن يعدم الموجود أبداً، وهذا بين جداً.

والحاصل: أن العدم الحقيقي على هذا هو الارتفاع عن صفحة الدهر - كما اعترف به - وكل ما وجد أو يوجد فإنه مرسم فيها وإنما المرتفع ما لم يتناوله اسم الوجود من أزل الأزال إلى أبد الآباد فما دخل في الكون ولو أنا قد تناوله اسم الوجود لا يمكن أن يصير التناول لا تناولا فاستحال العدم الحقيقي، والعياذ بالله تعالى.

ثالثاً: إن المسلم الذي يخرج من النار إلى الجنة بشفاعته سيد الشافعين عليه السلام أو بمحض الرحمة من أرحم الراحمين كما وردت بذلك النصوص الصحيحة الصريحة يلزم على مذهب زيد أن يكون هذا المؤمن السعيد في النار بعد الخروج منها في الواقع ونفس الأمر وإن قصارى ما حصل من الخروج هو أنه أخفى فيها، وكذلك إبليس فإنه كان في الجنة قبل إبعاده إلى سجود، قال تعالى: ﴿فَأَهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣]، فقد لزم على ذلك أن يكون في الجنة في الواقع ونفس الأمر، وليس الإخراج من الجنة هنا إلا الإخفاء فيها وقد يقول قائل هنا فهل يستمر لهؤلاء المسلمين من ألم العذاب والعقاب بعد الخروج منها نبادرهم بالإجابة، أجل يستمر لهم ألم العذاب، ولا شك في ذلك على مذهب زيد قصارى ما هنالك أنه من وراء الحجاب، وأستغفر الله العظيم، وكذلك فقل في التذاذ الشيطان بنعم الجنة وهو في النار، ومهما يكن من أمر فإن الأمر لا يعدو

الخفاء والظهور وإن حاولت أيما محاولة ولا ريب أن ملاك الأمر ليس إلا الواقع ونفس الأمر وإنما العبرة به.

وابعاً: ومما يستتبع قوله هذا من المفاسد، أن يكون الكافر^(١) في الجنة في حالة الكفر وذلك إذا كان بكر كافراً ثم أسلم فقد تعرض كفر بمكر للعدم الزماني دون الارتفاع عن صفحة الواقع وذلك لا يعدو مجرد الاختفاء والغيوبة وهو غير مناف للوجود الحقيقي ومما لا شك فيه أن الكفر عرض من الأعراض التي لا تقوم بذاتها بل تحتاج لقيامها إلى الموضوع، وتبدل الموضوع مستحيل عند العقلاء جميعاً، فإن القائم بهذا غير القائم بذلك، فالكفر الموجود في الواقع ونفس الأمر لا مقام له في شيد سوى زيد، وإن قيام المبدأ يستلزم صدق المشتق وعلى هذا فهو كافر حقيقة وكذلك يقال في كل كافر أسلم واعتنق الإسلام فإنه يدخل الجنة بمقتضى حكم الشرع، فقد لزم أن يكون الكافر مع كفره في الجنة ومنتهى القول فيه أن كفره بسبب عدم الزماني مختف وإسلامه ظاهر.

خامساً: لما كان الأعدام الزمانية السابقة واللاحقة كلها مجرد احتجاب واختفاء فقد نتج من ذلك أن تكون كل ذرة من ذرات العالم أبدية فزيد لم يكن بالأمس أى كان مختفياً ولا يكون غداً أى سيختفى والوجود الحقيقي دائم سرمدي، إن هذه إلا كفر عظيم ولا كفر أكبر منه.

تقريره، أن القدم الذي نخصه بالملك العزيز عز وجل وصفاته العليا ليس بمعنى أن لا يمر زمانه إلا وهو فيه أو لا يخلو عنه جزء من أجزاء الزمان فإنه سبحانه وتعالى متعال عن الزمان لا يمر عليه زمان كما لا يحيط به مكان فهو مع كل زمان لكن ليس في الزمان وكذلك صفاته جلّت أسمائه ألا ترى أن الفلاسفة قالوا بقدم العقول فأكفروناهم مع أنهم لا يعتقدون قدمها بالمعنى المذكور لأنها أيضاً ليست

(١) وكذلك يستلزم أن يكون المسلم مع إسلامه مخلداً في النار كما في الارتداد والعياذ بالله (المؤلف قدس سره).

عندهم من الزمانيات فإدًا لا نعى به إلا أن الشىء لا بداية لوجوده كما نقصد بالأبدية أن لا نهاية لخلوده وهذا ظاهر جلى وقد صرح به أئمة الكلام كالإمام الرازى وغيره، وإذا كان الأمر كما وصفنا لك والأعدام الزمانية لا تزيد عندك على غيبة وخفاء فإذن ما ظننت أن الحدوث وأن الفناء ليسا بهما، ولا بهما بداية الوجود، ونهايته وإنما هما آنا بداية الظهور وانتهائه أما الوجود الواقعى فلا أول له ولا آخر إذ ليس فى الدهر على القول به إمكان يسع «يكون وقد كان» فما خلت عنه الصفحة لا يرتسم فيها أبدا وما ارتسم فيها مرة لا يمحك عنها أصلا فالنتيجة إن كل موجود كان مستقرًا فيها من الأزل ويبقى مستمرًا إلى الأبد فثبت أن لا بداية لوجود العالم ولا نهاية وهذا ما أردنا الإلزام به.

يقول العبد الضعيف لطف به المولى اللطيف إنا لو أوسعنا المقال فى إبطال هذا المحال فعندنا بحمد الله تعالى شوارق بوارق تبهر العماء (هو اللجاج لأنهم قليلا ما يبهتون) وسحائب قواضب تطر الدماء ولئن تضرعنا إلى القريب المجيد لرجونا المزيد ولنلنا البعيد ولكن فيما ذكرنا كفاية لأهل الدراية والحمد لله على حسن الهداية أيها المسكين ! إن هذا الوصف العظيم عندنا إنما هو لعلم البارى جل جلاله المحيط بجميع الكوائن الماضية والآتية المنزه عن الزمان، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض، وكل ذرة من ذرات العالم كانت فى علمه قبل أن يخلق العالم ولم يزل علمه تعالى على حاله بعد أن خلق العالم ولا يزال علمه محيطًا بكل شىء عندما تفنى الفانيات حسب الوعد الإلهى، العالم يتغير وعلمه عز وجل لا يتغير، يمر بالأشياء أحوال ثلاث: العدم، والحدوث، والفناء، ولم يزل علمه تعالى محيطًا بالأشياء فى أحوالها الثلاثة بصفة مفصلة ولا يزال كذلك إلى الأبد قد تغير المعلوم ولم يتغير العلم ألبتة وإنما تعددت عبارتنا عن ذلك الشىء ولغتنا القاصرة التى لا تدور إلا فى إطار الزمان ومحيط المكان، فقد نعبّر - به يوجد، وقد نأتى بوجود وقد نقول، كان وجد.

فهذا هو الوجود الذى لا يتطرق إليه التبدل والتغير، فعبر عنه فى اصطلاحك إن شئت بوعاء الدهر، وحقا الواقع أو غيره ما يحلو لك ولكن لا يمكن أن يكون هذا الوجود حقيقياً ذاتياً للأشياء كما لا يطلق بحصول الشيء فيه أنه موجود فى نفسه وإلا عادت تلك الاستحالات السابقة عن آخرها.

وليس للزمانيات وجود وعدم حقيقة إلا ما يعبر عنه زيد بالظهور والخفاء فإذا أسلم كافر فقد انعدم كفره فى نفس الأمر ألبة ولم يبق له قيام بذات زيد ولا كون للأعراض فى نفسها بل كونها إنما يكون فى الموضوع وإذا خرج مسلم من النار فقد انتهت حالته النارية تلك بمجرد الخروج منها لأنه عرض من الأعراض وهو زائل باطل بعد انفصاله عن الموضوع وعلى هذا القياس.

يا هذا لو كان الوجود الواقعى بمجرد الوجود العلمى لاستحال عدم أمر من الأمور سوى الممتنعات لأنه لا حجر على العلم ولا حرج عليه فإنه يتعلق بالموجود والمعدوم على حد سواء وبالرغم من هذا ليس بخاف على أحد من العقلاء أن الشيء لا يطلق عليه لفظ الموجود بمجرد حصوله فى العلم، فإن الطوفان فى عهد سيدنا نوح عليه السلام غير موجود الآن فى الواقع وهو موجود فى علمنا وكذلك يوم القيامة لم يوجد الآن وهو معلوم لأذهاننا ولن يقاس العلم بالواقع فأين الحكاية من المحكى عنه؟

أيها السفية ! إن المضلات الفكرية التى تعرضت لها إنما هى ناتجة من سفاهتك نفسك فإنك سميت الوعاء المخترع بنفس الأمر ثم جعلت البقاء فيه حقيقة وجود الأشياء وجعلت الأعدام الزمانية السابقة واللاحقة مجرد احتجاب واختفاء فليت النمل لم تطر.

وأعجب من ذلك أنك جعلت وعاء الدهر ظرفاً حقيقياً مستقلاً ثم جعلت الوجود الدهرى للزمانيات مستقلاً عن الوجود الزمانى حتى جعلت البقاء متواصلاً بعد الانعدام من كل جزء من أجزاء الزمان ولا شك أن الاستحالات

البينة التي تستتبع هذا التقرير من جهة المنهج العقلي ليست بخافية على المشتغلين بالفلسفة والكلام المتعودين للجدال والخصام ولا نضيع الوقت في الاسترسال وراء هذه الأوهام فإن منصب الإفتاء يجب احترامه وإجلاله وهذا الجدال والخصام ليسا من مهماتنا ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

تنبيه: قد علمنا أن الكلام هنا سينجر إلى مسألة عويصة في العلم ولكنها إنما تعتص على الذين جعلوا قلوبهم وراء ظنونهم أو اعتادوا الجدال وقيل وقال وكثرة السؤال وركض البغال في مضيق المجال أما أهل السنة فهم بحمد الله آمنون فرحون بفضل الله مستبشرون لا يصعب عليهم شيء من مسائل الذات ودقائق الصفات كيف وأنهم أصلوا أصلاً في أصول الدين فهو وردهم وهو صدرهم في كل حين وذلك أن ما أثبتته الشرع فسمعاً وطاعة وما رده فإليك عنا وما لم يخبر عنه فعلمه إلى الله وهم لا يجيزون القول على الله عز وجل من دون ثبوت أو إثارة من علم سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك انت العليم الحكيم.

وأخرج الطبراني في الأوسط وابن عدى والبيهقي وغيرهم عن ابن عمر عن النبي ﷺ : «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله» وأخرج أبو نعيم في الحلية عن ابن عباس عن النبي ﷺ : «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله فإن بين السماء السابعة إلى كرسيه سبعة آلاف نور وهو فوق ذلك» أخرج أيضاً عن أبي ذر عن النبي ﷺ كلفظ الحلية وزاد «فتهلكوا» نسأل الله العفو والعافية.

القول الثامن

لقد اتضح حكم القول الثامن مما سبق من التحقيقات البالغة في مفاصل الأقوال السبعة السالفة فلتقس على البستان ربيعه.

هذه هي الكفريات التي كان بها كل هذا الاعتزاز وهذه هي الضلالات التي كان بها كل هذا الاهتمام والاحتفاء ومن الواضح الجلي لدى كل مسلم درجة

القبیح التي تستبیع هذا المدح والإشادة منه بهذه المعانی الفاسدة وتلك المضامين الباطلة، وإن بغیت التفصیل فأقول وعلى الله التعویل:

أولاً: لقد وصف هذا الكتاب بأوصاف بالغة من التدقيق الفصیح والتحقیق الصریح، واكتناه الحقائق وما من رب أن هذه الكلمات نص صریح فی تصحیح الكتاب وتصویب محتوياته، مع أنه ملئ بمذاهب الفلاسفة المكفرة، وقد قال العلماء الكرام من صرح بمذهب من مذاهب الكفار فقد كفر وإن كان مقرأ بالإسلام ومعتقداً له بل وإن كان معلناً للإسلام على رءوس الأشهاد، ففي «الشفاء الشریف» يكفر من لم يكفر من دان بغير ملة الإسلام أو وقف فيهم أو شك أو صحح مذهبهم وإن أظهر الإسلام واعتقده واعتقد إبطال كل مذهب سواه فهو كافر بإظهار ما أظهر من خلاف ذلك، وكذلك نقل الإمام الأجل أبو زكريا النووي رحمه الله تعالى في «الروضة» وأقره بل وقال العلماء العظام من حسن أمراً من أمور الكافرين فقد كفر عند الجميع يقول العلامة السيد أحمد الحموي في «غمز العيون» اتفق مشايخنا أن من رأى أمر الكفار حسناً فقد كفر حتى قالوا في رجل قال: «ترك الكلام عند أكل الطعام حسن من المجوس أو ترك المضاجعة عندهم حال الحيض حسن» فهو كافر إلى آخره، ويثله في «البحر الرائق» وغيره، وفي «الإعلام» نقلاً عن علمائنا في فصل الكفر المتفق عليه، أو صدق كلام أهل الأهواء أو قال عندي كلامهم كلام معنوي أو معناه صحيح أو حسن رسوم الكفار.

وحمل العلامة ابن حجر أهل الأهواء على الذين تكفروهم ببدعتهم، قلت وهو كما أفاد ولا يستقيم التخريج على قول من أطلق الإكفار بكل بدعة فإن الكلام في انكفر المتفق عليه فليتنبه.

ثانياً: قد روى أبو بكر بن أبي الدنيا في كتابه «ذم الغيبة» وأبو يعلى في مسنده والبيهقي في «شعب الإيمان» عن سيدنا أنس رضي الله عنه وروى ابن عدي في «الكامل» عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «إذا مدح

الفاسق غضب الرب واهتز لذلك العرش» وقال العلماء وذلك لأن المولى تبارك وتعالى قد أمرنا بالتجنب عن الفاسق وإبعاده عنا أفاده المناوى.

والحاصل أن الفاسق يستحق الإهانة شرعاً وفي المدح تعظيم، وهنالك فليقطع قلوب المتهورين لما كان مدح الفاسق على هذا القدر من الشدة بسبب مقارنته للمعاصي فما بال المدح لهذا الكتاب الذى يحمل فى طيه كل هذه الكفريات الصريحة وكم يغضب الرب منها وكم يهتز لها عرش الرحمن، ثم انظر الفرق بينهما فهناك معصية وهنا كفر ثم هناك مقاربة وارثكاف فقط وهنا الحمل والتضمن لأن المعصية لا تكون جزء من بدن الفاسق أو روحه بخلاف هذه الكفريات فإنها لحمة الكتاب وسداه وجزء لا ينفك عنه وهى لازمة فى جميع الأحوال فى الكتابة والقراءة سا،^{٢٠} فى اللفظ والمعنى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

ثالثاً: نستوضح زيدا هنا ونستفسره هل يرى هذه الكفريات كفراً أو لا، فإن لم تكن هذه المعانى عنده من الكفريات فقد اعترف بكفره بلسانه وباء بالكفر على نفسه وإن كانت عنده من الكفريات فإن أهون ما يحكم فى شأنه وفى قيامه بالتأليف والتحرير والطبع والنشر مع احتواء الكتاب هذه الكفريات والضلالات إن فعله هذا حرام بدون أدنى ريب. فإن لم يعترف بحرمة هذه الأفعال فقد استحل كبيرة من أكبر الكبائر. واستحلال الكبيرة كفر فى الشرع، وإن اعترف بحرمتها فقد مدح هذا الأمر المحرم شديد التحريم وعظمه وعلى هذا تتوجه إليه تلك الفتوى الفقهية بأن مدح المحرم القطعى وتحسينه كفر مبین، والعياذ بالله رب العالمين.

والملفت للنظر حقاً، أن هذه القضية (أنا ملك) لا شك أنها كانت فى غاية من الخطورة وبذلك اضطر العلماء إلى إبانة الحكم عنها وإدراجها فى باب المكفرات مع تضعيف من ذهب إلى عدم التكفير، نقول لما كان الأمر بهذا القدر من الخطورة فى هذه المسألة مع خفتها نسبياً إلى ما نحن فيه. فلتخيل درجة الخطورة فيمن قال

إن كتابه يجعل البشر ملكًا، نسأل الله تعالى العافية، وتغاث العافية، ودوام العافية،
والشكر على العافية وحسن العاقبة، وكمال الإيمان والله المستعان.

ملاحظات على اسم الكتاب

ولم يبق بعد كل هذا إلا اسم الكتاب، وكان قد استفسر عن حكمه بعد
الأحاب الخالص - كان حفظ الله له نصيرًا حسنًا - قبل ورود هذه الأسئلة فأقول
ويعون الله أجول، في هذا الاسم احتمالات عديدة تنشأ من اختلاف الإضافة
ووصف الناطق، غير أنه لا يخلو أي واحد منها عن المحذور الشرعي أما الوجه
الأول، فعلى تقدير الإضافة - أعم من أن تكون بتقدير «اللام» أو «من» فالظاهر
المتبادر من «ناطق أنا له الحديد» هو حضرة المولى تعالى وتقدس، فالمعنى على
ذلك المنطق الحديد لمن قال في القرآن المجيد أنا له الحديد، أو المنطق الحديد من
قال أنا له الحديد ولا شك أن القائل بهذا هو مولانا تبارك وتعالى وهذا الوجه
يستتبع كثيرًا من المفسدات الوخيمة، أولاً فيه إسناد هذه المعاني الباطلة والمضامين
الفاسدة إلى المولى عز وجل وذلك افتراء بين عليه تعالى، قال المولى عز وجل :
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يَفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦] يقول الإمام عبد
الرشيد البخاري تلميذ الإمام العلامة الظهيري والإمام فقيه النفس القاضي رحمهم
الله تعالى كما في خلاصة الفتاوى من قال أحسنت لما هو قبيح شرعاً أو جودت
كف ، وفي «الطريقة المحمدية» كل تحسين للقبیح القطعی كفر وفيها عن الإمام
ظهیر الدین المرغینانی من قال لمقرء زماننا «أحسننت» عند قرائته يكفر وفي المحيط
إذا شرع في الفساد وقال لأصحابه «ببايد تاكي خوش بز ييم» تعالوا نفرح سويا،
كفر.

والفروع الناشئة من هذا الأصل في كلمات العلماء الكرام كثيرة وكثيرة، نسأل
الله العافية.

رابعاً: ومما يدعو إلى العجب والاندعاش، هذا الإطراء المذهل وذلك المدح المفرط حيث وصف كتابه بأنه ملكى التأثير بل وصفه بأنه جاعل الإنسان ملكاً، سبحانه الله، ها هو مستنقع الكفريات ومزيلة الخرافات والبطالات تجعل البشر ملكاً^(١)، قال العلماء العظام لا ينبغي التشبيه بالملائكة وقد يؤدي الإصرار على ذلك إلى الكفر. والعياذ بالله تعالى ففى «الشفاء» ونسيم الرياض، من يمثل بعض الأشياء ببعض ما عظم الله تعالى من ملكوته (من الملائكة والعرش ونحوه) غير قاصد للاستخفاف فإن تكرر هذا منه وعرف به دل على تلاعبه بدينه وهذا كفر لا مرية فيه إلى آخره ملخصاً.

فلتتخيل بعد هذا مدى الوخامة التى تترتب على وصفه هذا المستنقع المتن بأنه ملكى التأثير، ففى «الفتاوى الهندية» رجل قال لآخر أنا ملك فى موضع كذا أعينك على أمرك فقد قيل إنه لا يكفر وكذا إذا قال مطلقاً أنا ملك بخلاف ما إذا قال أنا نبي كذا فى «التارخانية».

وقال عز وجل : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ١٤٤].

حتى لقد أفنى جمهور العلماء فى شأن هذا وأمثاله بالكفر على الإطلاق ففى «شرح الفقه الأكبر»، فى «الفتاوى الصغرى»، من قال يعلم الله أنى فعلت هذا وكان لم يفعل كفر أى لأنه كذب على الله، وفى المحيط، من قيل له يا أحمر فقال خلقنى الله من سويق التفاح وخلقك من الطين أو من الحماة وهى ليست كالسويق كفر وقال على القارى، أى لافترائه على الله تعالى مع احتمال أنه لا يكفر بناءً على أنه كذب فى دعواه، وفى «الدر المختار» هل يكفر بقوله الله يعلم أو يعلم الله أنه فعل

(١) اللهم إلا أن يستند إلى ذلك المذهب المرجوح المهجور القائل بأن إبليس كان صنفاً من الملائكة فربما سبق من المؤلف القلم فكتب «جاعل البشر ملكاً» بدل أن يكتب «جاعل البشر شيطاناً» أو ربما يطلقون على الشيطان كلمة الملك فى اصطلاحهم الجديد حيث إنهم من أتباع المنطق الجديد. سلطان أحمد خان.

كذا أو لم يفعل كذا كاذبًا؟ قال الزاهدي، الأكثر نعم، وقال الشمني الأصح لا في رد المحتار، ونقل في نور العين عن الفتاوى، تصحيح الأول.

ثانيًا: وفيه مشابهة كاملة باليهود والنصارى قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]. وقال النبي ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم» أخرجه أحمد وأبو داود وأبو يعلى والطبراني في الكبير عن ابن عمر بإسناد حسن وعلقه وأخرجه الطبراني في الأوسط بسند حسن عن حذيفة رضى الله عنه.

ثالثًا: لقد قال العلماء عن مطلق المنطق وأفتوا بتكفير من جعله من تعليم النبي ﷺ بدعوى أنه أهان علم النبي ﷺ ففي «الحديقة الندية»، الصحابة - رضى الله تعالى عنهم - لم يكونوا ليشغلوا أنفسهم بهذا الفشار الذى اخترعه الحكماء الفلاسفة بل من اعتقد فى النبي ﷺ أنه كان يعلم الشقاشق والهديانات المنطقية فهو كافر لتحقيره علم النبي ﷺ سبحانه الله ! فانظر هذا المنطق المزخرف الحامل فى طيه مئات من وساوس الأبالسة ودسائس الفلاسفة ألا تكون نسبة كل هذا إلى المولى عز وجل إهانة لحضرته وتنقيصًا من شأنه عز وجل والعياذ بالله تعالى.

رابعًا: لا يجوز إطلاق كلمة ناطق على المولى عز وجل لأنه لم يرد هذا اللفظ له عز وجل فى الشرع، والأسماء الإلهية توقيفية ومن هنا لا يجوز إطلاق كلمة «سخى» عليه جل جلاله مع أننا نؤمن إيمانًا جازمًا بأنه جواد كريم لأنه لم يرد فى الشرع المطهر، والمسألة شهيرة وفى الكتب سطر وقد يمثل بجواز الشافى دون الطبيب لعدم ورود أقول ولكن قد ورد فى الحديث الله الطبيب وأنت الرفيق وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه الطبيب أمر ضنى، فليحرر والله تعالى أعلم.

خامسًا: وفى إطلاقه إيهام النقص لأن كلمة «النطق» فى اللغة بمعنى التكلم بصوت وحرف ففى القاموس، نطق ينطق نطقًا، تكلم بصوت وحروف تعرف بها المعانى.

فائدة: من هنا تبين أن إطلاق كلمة الناطق على المولى عز وجل خطأ من ناحية اللغة أيضاً مع صرف النظر عن الورد وعدمه بخلاف الكلام والقول حيث إنه لا يشترط فيهما الحرف والصوت، فقد قال أمير المؤمنين الفاروق الأعظم في حديث السقيفة زورت في نفسى مقالة وفي شعر الأخطل:

إن الكلام نفى الضؤاد وإنما جعل اللسان على الضؤاد دليلاً

ولذا لا يقال نطقت في نفسى، وإن النطق حقيقة هو الكلام مع الحرف والصوت الخاص بالإنسان مثل الصهيل والنهيق الخاصين بأصوات الفرس والحمار ولهذا عرف سفهاء الفلسفة الإنسان بالحيوان الناطق كما عرفوا الفرس والحمار بالصاهل والناحق ثم اخترع المتأخرون منهم بأن النطق عبارة عن إدراك الكليات ليكون الحد تاماً ولم يسعهم ذلك فى الصهيل والنهيق فأبقوا على ما هو عليه ذلك مبلغهم من العلم إن هم إلا يخرصون. هذا هو المعنى المتبادر من هذا الاسم على تقدير الإضافة كما قد مر بك مفصلاً.

الوجه الثانى: لا يمكن أن تصح هذه النسبة وتندفع تلك المحذورات السابقة فى حال من الأحوال إلا إذا لجأ المؤلف إلى التأويل البعيد الذى لا يغنى عن شىء فيقول مثلاً إن المراد من «ناطق» أنا (المؤلف) بدعوى إن الإضافة هنا لأدنى ملابسة، غير أنه أولاً، إن العلماء قد عدوا من آفات اللسان أن يريد أحد خلاف المتبادر فى المحادثة اليومية العادية بدون أن يكون هناك داع شرعى، ففى «الطريقة المحمدية»، و«الحديقة الندية»، الخامس من آفات اللسان إرادة غير الظاهر المتبادر من الكلام (الذى يفهمه كل أحد) وهو جائز عند الحاجة إليه (كالكذب على الزوجة وبين الاثنين وفى الحرب وما ألحق بذلك) ويكره (كراهة تحريم) بدونها إلى آخره ملخصاً.

فما بال الكلام إذا كان الظاهر منه مستنقعاً للآفات والمفاسد.

ثانياً: إن الإيهام وحده كاف للمنع، ففى «رد المحتار» مجرد إيهام المعنى المحال

كاف في المنع عن التلفظ بهذا الكلام وإن احتمل معنى صحيحا، ولذا علل المشائخ بقولهم لأنه يوهم، إلى آخره.

ونظيره ما قالوا في أنا مؤمن إن شاء الله فإنهم كرهوا ذلك وإن قصد التبرك دون التعليق لما فيه من الإيهام كما قرره العلامة التفتازاني في «شرح العقائد» وابن الهمام في «المسيرة».

فما رأيك إذا كان من الكلام إذا كان من الكلام الممنوع هو المتبادر.

ثالثاً: وليس هذا فحسب ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد فقط، بل بقي أن نستفسر عن تلك الملابس التي سوغت هذه الإضافة وما هي تلك المناسبة بين فلسفته هذه وبين تلك المعجزة العظيمة التي منحها الله جل جلاله لنبي جليل بقدرته الكاملة، والتي بينها في القرآن الكريم فإن قال بأنني شبهت المعاني المغلفة بالحديد كما شبهت توضيح تلك المعاني بإلانة الحديد فإن قال هذا فلا شك إذ إنه مغرور بفلسفته وجزئي على مقام النبوة الرفيع وجسور على منصب الرسالة المنيع سبحانه الله، فأين هذه المعاني النجسة الملطخة بكل أنواع الانجاس والأرجاس من تلك المعجزة العظيمة التي وهبها الله عز وجل لنبي عظيم، فأين الأرض من السماء وأين الثريا وأين الثرى وما التناسب بين البول والغسل؟

وقد مَرَّبَكَ قريباً حكم التشبيه بالملائكة ولا شك أن الأنبياء عليهم التحية والثناء أفضل من الملائكة، ولقد صرح أئمة الدين أن شخصاً هذا شأنه عار عن توقير النبوة وتعظيم الرسالة، ومستحق للزجر والنكير ومستوجب للضرب والتعزير ومعرض للسجن والحبس وقالوا يحسبونه هينا وهو عند الله عظيم لأنه من الكبائر وإن لم يقصد القائل إهانة النبي ﷺ ففي «الشفاء» و«نسيم الرياض».

والحاصل، أنه لن يرضَ مسلم أبداً أن يلوى أحد تلك الآية الكريمة التي تمدح أحد الأنبياء المكرمين ويلصق بذاته بالتشبيه أو التمثيل وهل يعقل أن يلبس تاج الملك الجليل القدر العظيم الشأن أحد الأساكفة أو الزبالين نسأل الله العافية.

الوجه الثالث: ومن هنا تبين أنه لا نجاة فيه ولو أردنا من كلمة «ناطق» طلبه المنطق أو قراء هذا الكتاب على تقديم «اللام» بين المضاف والمضاف إليه) لأن التشبيه كما لا يجوز لنفسه كذلك لا يجوز لغيره كما لا يخفى.

الوجه الرابع: فإن لجأ إلى التحايل وقال بأن المراد من «ناطق أئنا له الحديد» هو سيدنا داود عليه السلام ففيه فإن الإضافة حينئذ لا شك أنها في غاية من الروعة والحسن بادئ الرأي، غير أن تلك الآفات السابقة سترجع مرة أخرى لأن فيه افتراء مبيتاً على نبي من أنبياء الله تعالى وتنقيصاً من شأنه وعلمه العزيز كما يظهر مما قررناه آنفاً فإن حاول الفرار من هذا الافتراء بدعوى أنه لم يقصد حقيقة النسبة بل الأمر هنا على التشبيه كما يقول بعض المتساهلين السفهاء للنعم الجميل بأنه نعمة داودية أو ألحان داود نقول إن لجأ إلى هذا فقد رجعت مفساد التشبيه المارة بك آنفاً التي تكفى للموعيد والتهديد. والخلاصة أنه لا مفر من المفساد وإن بلغنا أسباب السماوات والأرض والعياذ بالله تعالى.

تعالوا نتبع الآن تلك القبائح التي تستلزم هذا الاسم على تقدير الوصف أي بتنوين «ناطق» وهذا التقدير لا يسع «من» في حال من الأحوال إلا إذا ارتكبنا بعض التمحلات ولجأنا إلى بعض التكالفات النحوية بأن نجعل «من» تعليلية أي «لأجل» وعلى هذا التقدير يراد من ضمير المتكلم في «أئنا له الحديد» مؤلف الكتاب كما لا يخفى ومن «ناطق» الطلبة أو القراء ومن الحديد المعاني الدقيقة ومن الإلانة أيضاحها وإبانتها فالمعنى المستفاد على هذا التقدير، هذا المنطق الجديد لأجل الطلبة أو القراء الناطقين الذين أوضحنا لهم المعاني الدقيقة، ومن الممكن أن لا يشعر الغر بأى محذور شرعى غير أن المحذور الشرعى الشديد لا يزال قائماً بعد، فإن استعارة الكلام الإلهي تعالت عظمتها لكلام الناس واستعماله في هذا الموضع وأمثاله حرام وموجب للنكال والوبال حتى أفتى معظم الفقهاء بالكفر والعياذ بالله سبحانه وتعالى، ووجه التحريم بين وواضح. وليستحضر عظمة ربه تبارك وتعالى في هذا الموضع أولاً ثم ليتأمل من الذى قال «أئنا له الحديد»؟ ومن

المراد من ضمير «نا»؟ وإلى أين يشير الضمير في «له»؟ وما هو المضمون الذي تفيد به الآية الكريمة؟ ثم انظر كيف يستعمل هذا الكلام الرفيع؟ وكيف يستعير ضمير «نا» المعبر عن المولى عز وجل للمهين الحقير وكيف يلوى ضمير «له» المعبر عن نبي عظيم إلى نفسه؟ وكيف يصرف ذلك الكلام الرفيع إلى هذه الترهات والأباطيل؟ والله ورسوله أعلم بمفاسدها ولقد صدق من قال، إن تاج الملوك لا يليق بالرعاة أو الزبالين.

هذا، وإن الإنسان قلما يقتنع بقول الخصم وإن كان حقاً، لأن النفس دائماً تنهض للدفاع عنها والانتصار لها ولذا فلستحضر في ذهنه رجلاً غيره ثم ليفكر ليسهل الاقتناع فمثلاً إذا أعطى زيدٌ عمرواً مالا كثيراً ثم قال إنا أعطيناك الكوثر فلا شك أن زيداً يعد منقصاً ومهيناً لكلام الله عز وجل ورسوله فأين المولى عز وجل؟ وأين زيد؟ وأين المصطفى ﷺ؟ وأين عمرو؟ وأين الكوثر؟ وأين المال؟ وكذلك لو أرسل زيد عمرواً المهمة فقال بكر من أرسلك؟ فقال زيد، أمر من عندنا إنا كنا مرسلين، وعلى هذا قياس غيره من أراجيف جهلة الناس.

أجل، إن مثل هذا الاستعمال يستلزم الكفر والاستخفاف غير أن من العلماء من ألزم باللزام فكفر ولكن المحققين أفتوا بالحرمة لعدم الالتزام، فأتقن هذا فإنه مفيد وتحقيق المقام يقتضى المزيد وإن له عند العبد الضعيف بفضل المولى القوى اللطيف تنقيحاً وبسطاً وتوضيحاً وضبطاً يطلب هو وأمثاله من مجموعنا المبارك إن شاء الله تعالى «العطايا النبوية في الفتاوى الرضوية»^(١)، وبهذا القدر وضح الأمر وبان الفرق بينه وبين التضمين فإنه سائغ عن الأكثرين وإن ذهب ناس إلى التحريم

(١) هذه عبارة عن مجموعة مباركة لفتاوى الشيخ الإمام - رحمه الله تعالى - في اثني عشر مجلداً وهي مطبوعة متداولة بين الخواص والعوام في شبه القارة الهندية وما زالت في اللغة الأردية وهناك محاولات لترجمتها إلى اللغة العربية من قبل الطلبة الهنود النشطاء - حفظهم الله تعالى - وذلك إثراء لمكتباتنا العربية بهذه التحفة الغالية. محمد جلال رضا.

والله سبحانه بالحق عليم، ففى «الفتاوى الهندية»، جمع أهل موضع وقال «فجمعناهم جمعا» أو قال «وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا» كفر، إلى آخره ملتقطا.

وفىها أيضاً إذا قال لغيره «خانه جنان باك كرده كه جون (والسما والطارق) «أى ظهرت البيت حتى أصبح مثل والسما والطارق قيل يكفر وقال الإمام أبو بكر بن إسحاق - رحمه الله تعالى - إن كان القائل جاهلا لا يكفر وإن كان عالما يكفر، وإذا قال حتى أصبح «قاعا صفصفا» فهذه مخاطرة عظيمة وإذا قال لباقى القدر «والباقيات الصالحات» فهذه مخاطرة عظيمة كذا فى الفصول العمادية، وفى تنمة الفتاوى من استعمل كلام الله تعالى فى بدل كلامه كمن قال فى ازدحام الناس فجمعناهم جمعا كفر وفى المحيط من جمع أهل الموضع وقال «وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا» أو قال «فجمعناهم جمعا» كفر وقد علله الفاضل على بن سلطان محمد المكى فقال لأنه وضع القرآن فى موضع كلامه، وفى الإعلام نقلا عن علمائنا فى فصل الكفر المتفق عليه أو ملأ قدحا فقال «كأسا دهاقا» أو فرغ شرابا فقال «فكانت سرايا» وقال باستهزاء عند الوزن أو الكيل، «وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون».

والحاصل ليس هناك أى احتمال مرضى فى هذا الاسم يقبله أرباب العقول وينجى واضع الاسم من ارتكاب الإثم وذلك بعد التبع قدر الوسع. ولا شك أن مثل هذا الكتاب لا يليق به إلا مثل هذا الاسم الخبيثات للخبثين والخبثيون للخبثات.

نسأل مولانا العفو والعافية والنعمة الوافية والرحمة الكافية والهداية الشافية والعيشة الصافية إنه هو الغفور الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله تعالى على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه أجمعين، آمين.

الوجه الخامس: ألا يقصد نقصاً ولا يذكر عيباً ولا سبا ولكنه ينزع بذكر بعض أوصافه ﷺ على طريق التشبيه به أو على سبيل التمثيل وعدم التوقير لنبيه ﷺ (لتشبيه نفسه به وأين الثريا وأين الثرى) يحسبونه هينا وهو عند الله عظيم (لأنه من الكبار) فإن هذا وإن لم تتضمن سبا ولا أضافت إلى الملائكة والأنبياء نقصاً ولا قصد قائلها إزراءاً ولا غصاً فما وقر النبوة ولا عظم الرسالة حتى شبه من شبه في كرامة نالها أو ضرب مثل بمن عظم الله خطره وشرف قدره وألزم توقيره وبره فحق هذا (القائل) وإن درى عنه القتل الأدب (بضرب أو لوم أو زجر) والسجن ولم يزل المتقدمون (من السلف وكبار الأئمة) ينكرون مثل هذا ممن جاء به (فليحذر من ارتكاب هذه القبائح الشديدة الوزر العظيمة الإثم فإنها ربما جرت إلى الكفر نعود بالله من ذلك). وقد أنك الرشيد على أبي نواس في قوله «فإن عصى موسى بكفى خصيب» (خصيب عبد الرشيد ولاء مصر استعار عصا موسى لسياسة حاكمهم وقطع ظلمهم ففيه استعارة تشبيه بديع لكن فيه سوء أدب لما فيه من جعل العصا التى هى معجزة لرسول بكف خصيب عبد من عبيد الخلفاء وجعل ذلك العبد كرسول من أولى العزم) وقال له (الرشيد لأبى نواس) يا ابن اللخناء (هذا مما تشتم به العرب واللخناء هنا أمه من اللخن وهو النتن فاستعير للفاحشة أو للمرأة لم تختتن أى يا دنى الأصل ولثيم الأم أتستهزء بعصا موسى (وهى معجزة نبي عظيم) وأمر بإخراجه من عسكره من ليلته إلى آخره ملخصاً.

الإفصاح ووقع به التجاذب في إعطاء الكفر البواح، فلفظة «عندهم» في القول السادس - فربما جاء للتبري وإن كان الظاهر ثمة خلاف ذلك عند العارف بأساليب الكلام - وهذان القسمان لا إكفار بهما عند المحققين، أما الثاني فواضح لأن من يشهد بالشهادتين فقد ثبت إسلامه يقين واليقين لا يزول بالشك وقد روى ذلك عن أئمتنا كما في حاشية السيد أحمد الطحطاوى عن «البحر الرائق» عن جامع الفصولين عن الإمام الطحاوى عن الأجلة الأصحاب رضى الله عنهم.

وأما الأول فلما صرح الأئمة الأثبات أن التكفير أمر عظيم وخطر جسيم كلحم جمل غث على رأس جبل وعمر لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقى، مسالكه عسيرة، ومهالكة كثيرة فالذى يحتاط لدينه لا يتجاسر عليه إلا بدلائل كشموس بل أجلى حتى إن المسألة إن كانت لها وجهة إلى الإسلام وتسع وتسعون وجهة إلى الكفر فعلى المفتى أن يميل إلى الوجهة الأولى فإن الإسلام يعلو ولا يُعلى وإن كان هذا لا ينفع القائل عند الله تعالى إن كان أراد وجهة أخرى.

وقد قال مولانا العلامة زين بن نجيم المصرى فى البحر، إن الذى تحرر أنه لا يفتى بتكفير مسلم^(١)، أمكن حمل كلامه على محمل حسن أو كان فى كفره اختلاف ولو رواية ضعيفة - قال رحمه الله تعالى - فعلى هذا أكثر ألفاظ التكفير المذكورة لا يفتى بالتكفير بها وقد ألزمت نفسى أن لا أفتى بشيء منها إلى آخره.

قال البحر الخير الرملى، أقول لو كانت الرواية لغير مذهبنا ويدل على ذلك اشتراط كون ما يوجب الكفر مجمعا عليه إلى آخره، تابعه عليه أبو السعود فى «شرح الأشباه».

وتد فصل الكلام فى هذه المرام تاج المحققين سراج المدققين سيدنا الوالد،

(١) وقد عثرت خلال مطالعتي علي رسالة نفيسة للإمام حجة الإسلام الغزالي مسماة بـ «فصل التفرقة» ضمن مجموعة الرسائل للإمام عقد فيها بابا لمناقشة قضية التكفير وضوابطه فعليك بها إن أردت التوسع فيها، محمد جلال رضا.

قدس الله سره الماجد فى بعض فتاواه التى شدد فيها النكير على بعض أعلام عصره فلم يردوا شيئاً وكانوا إليه مذعنين ومنها وهو الأكثر، ما لا عذر فيه لزيد ولا مهل، ولا رويد، كالأقوال الأربعة الأول وغيرها فإنه قد ناضل فيها ضروريات الدين وخلع من رقبته ربة اليقين ورأتى بما لا تغسله البحار ولا تساعد الحيل ولا الأعذار وقد علمت أنه إذا كان عن علم وعمد وطوع ولا ريب فى وجودها ههنا فلا تنفع العزائم ولا تمنع التمايم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

واعلم أن العبد الضعيف لطف به المولى اللطيف، لما وصل إلى هذا المقام وحن أوان الحكم على المتكلم بذلك الكلام اعترضت له حشمة كلمة الإسلام، فاستعظم الجزم بالإكفار أيما استعظام فرقاً من أن تكون هناك دقيقة عميقة لم يصلها فهمى أو شاذة لم يحط بها علمى، فاستخرت المولى سبحانه وتعالى وجعلت أراجع الكتب وأقلب الأوراق حتى أكملت الجرد وأنهيت الجهد حسب ما يطاق، وصرفت فيه يومين كاملين، فلم أر شيئاً تقر به العين بل كلما توغلت فى تتبع الأسفار تتابع الأقوال تؤيد الإكفار إلى أن وقفت على معظم المسائل وعامة الفروع فى كتب الأماثل من أصحابنا الحنفية وعمائد الشافعية وزعائم المالكية والذى تيسر من كلمات الحنبلية فإذا هى جميعاً كما هى على حدة كأنها ترمى عن قوس واحد فأيقنت أن ليس للرجل محيص ولا عن الحكم بالإكفار مفيض اللهم إلا حكاية ضعيفة عن بعض علمائنا فى «الجامع الأصغر» أن عقد الخلد هو المعتبر أوردها ثم ردها ولكن زدت بها تلعثما ووددت الوقوف هناك تأثماً علماً منى بأن الخلاف وإن كان ضعيفاً ههنا كاف.

فأمعنت النظر، وأنعمت الفكر حتى فتح المولى تبارك وتعالى أن الإكفار عليه الإجماع وإنما وقع فى الكفر النزاع، فلا شك ولا ارتياب أن من تكلم بكلمة الكفر طائعاً عالماً عامداً صاحبياً فهو كافر عندنا قطعاً لا ينتطح فيه عزان ونجوى عليه أحكام الردة ويحرم على امرأته أن تتمكن من نفسها ويجوز لها أن تنكح من دون

طلاق من تشاء والقائل نحبسه ثلاثا ندبا ونمهل ليرزق توبا، فإن تاب وإلا قتل
ورمى بجيفة كجيفة الكلاب من دون غسل ولا كفن لا صلاة ولا دفن وقطعنا
ميراثه عن مورثه المسلمين وجعلنا كسب رده فينا لجميع المؤمنين إلى غير ذلك من
الأحكام المشروحة في الكتب الفقهية.

أما أنه هل يكفر بذلك فيما بينه وبين ربه تبارك وتعالى فقليل لا ما لم يعقد
الضمير عليه لأن التصديق محله القلب وهذه هي الحكاية التي أشرنا إليها وقال
عامة العلماء وجمهور الأئمة نعم وإن لم يعقد لأنه متلاعب بالدين وهو كفر
يقين وقد قضى الله تعالى أن مثل ذلك لا يقدم عليه إلا من نزع الله الإيمان من
قلبه والعياذ به سبحانه وتعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ
أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾، ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾
[التوبة: ٦٦].

وهذا هو الصحيح الرجح المذيل بطراز التصحيح - فهناك عملت في ذلك
رسالة جليلة وعجالة جميلة تشتمل على غرر الفوائد والدرر الفرائد وسميتها
«البارقة اللمعاء في سوء من نطق بكفر طوعاء»^(١) ليكون العلم علما على التاريخ
كرسالتنا هذه التي نحن الآن مفيضون فيها سمينها «مقامع الحديد على خد المنطق
الجديد».

فعليك بها - فإن حققت فيها أن إكفار الطائع هو الإجماع من دون نزاع وأقمت
على ذلك دلائل ساطعة لا ترام وبراهين قاطعة لا تضام، فسكن الصدر واستقر
الأمر وبان الصواب وانكشف الحجاب والحمد لله رب العالمين.

(١) هذه رسالة قيمة كتبها المؤلف العلامة - رحمه الله تعالى - بالعربية بأسلوبه الرائع وقد أثبتنا كما
هي، وهي كما ترى كفيلة بالرد على تلك التهمة التي ألصقت بالشيخ زورا وبهتانا بأنه كان
متسرعاً في تكفير المسلمين. محمد جلال رضا.

حكم نهائى فى صاحب الكتاب الفيلسوف

اعلم أن الأقوال المذكورة بعضها حرام موجب للإثم وبعضها بدعة وضلالة ومعظمها كلمات كفرية والعياذ بالله تعالى.

وإن زيدا فى ضوء الأحكام الشرعية فاسق وفاجر مرتكب الكبائر، وهو مبتدع خاسر وضال خادع بأقواله المذكورة. وفى هذا القدر يقين محض لا يشوبه شك أو ارتياب وإلى جانب هذا لا مانع من حكم الكفر والارتداد فيما نرى لأن كلمات المذاهب الأربعة الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية متفقة فى هذا الباب بل فتاوى الصحابة والتابعين وأقضيتهم جميعا قد أفادت هذا المعنى، كما بيناه فى «البارقة للمعاء».

وإن سلمنا بصعوبات بالغة بأن هناك سبيلا من النحاة فعلى أقل تقدير هو كافر عند معظم علماء الدين وجماهير الأئمة الكاملين بصفة عامة وبذلك يجرى عليه أحكام الارتداد وإن مات بغير توبة فقد دخل النار، والعياذ بالله القدير البارى وهذا القدر من الحكم بين جدا لا خفاء فيه. العظمة لله، وهل يستسهل الكفر؟ ولو لم يتفق الجميع، ففى «الإعلام»، لو تشبه بالمعلمين فأخذ خشبة وجلس القوم حوله كالصبيان فضحكوا واستهزءوا كفر، زاد فى الروضة، الصواب لا ولا يغتر بذلك فإنه يصير مرتدًا على قول جماعة وكفى بهذا خسارا وتفريطًا إلى آخره ملتقطًا.

وإلى جانب ذلك قد مرت بك عبارة «الشفاف الشريف»، قد لا تكون بعض الأقوال كفرًا فى حد ذاتها غير أن تكرارها قد يؤدى إلى الكفر وصدورها مرة بعد مرة قد يصبح دليلا على أن القائل غير مهتم بالإسلام وحينئذ لا يكون من شك فى كفره.

سبحان الله ! ألا يكون صدور هذه الكفريات الخالصة بكل هذه الاهتمامات والحفاوات دليلا على كفر القائل؟ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

فمن أوجب الواجبات على زيد أن يجدد إسلامه ويتوب عن هذه الكفريات والضلالات على رؤوس الأَشهاد، ولا ينفع التلفظ بكلمة الشهادة باللسان سرّاً بالطرق العادية فقد كان يرددها قبل التوبة أيضاً بل يجب عليه أن يصرح جهراً بأن تلك الكلمات من الكفريات التي تخرج من الإسلام وقد ثبت منها ورجعت إلى الحق فعندئذ تصح توبته عند أهل السلام وليؤمن من جديد بأن لا خالق سوى الله عز وجل ولا قديم غيره - تعالى - وأنه مدبر للعالم جميعاً وهو على كل شيء قدير، وليشهد أن هذه العقول من مخترعات الفلاسفة الباطلة إلى غير ذلك من المواجبات التي تظهر بالمراجعة إلى ما قدمنا من المسائل ففي «البحر الرائق» أتى بالشهادتين على وجه العادة لم ينفعه ما لم يرجع عما قال إذ لا يرتفع بهما كفره كذا في «البرازية» و«جامع الفصولين» كما يجب عليه أن يشهر ويعلن عن توبته ورجوعه عن هذه الكفريات والضلالات كما قام بنشرها وإشاعتها، فالتوبة إنما تكون حسب طبيعة الذنب فالذنب المشهور يجب أن تكون التوبة عنها أيضاً مشهورة. فقد روى الإمام أحمد في كتاب الزهد والطبراني في المعجم الكبير عن سيدنا معاذ بن جبل رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال إذا عملت سيئة فأحدث عندها توبة، السر بالسر والعلانية بالعلانية، قلت وإسناده حسن على أصول الحنفية.

ولا أقول عن هذا الكتاب المخرب ما قال به بعض العلماء الحنفية والشافعية في شأن الكتب المنطقية بصفة عامة من جواز الاستنجاء بأوراقها إذا خلت عن اسم الله عز وجل ورسوله ﷺ ففي «شرح الفقه الأكبر» لو كان الكتاب في المنطق ونحوه تجوز إهانتة في الشريعة حتى أفتى بعض الحنفية وكذا بعض الشافعية بجواز الاستنجاء به إذا كان خالياً عن ذكر الله تعالى مع الاتفاق على عدم جواز الاستنجاء بالورق الأبيض الخالي عن الكتابة. إلى آخره ملخصاً.

لا أقول ذلك ولكن أقول إن يمتنع عن إعادة نشره وأن يحرق ما بقى من أجزاءه وأن يسعى جاهداً ما أمكن لإخماد ناره وإماتة ذكره لأن المنكر الباطل لا يستحق إلا هذا، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

سبحان الله، إذا كان على نشر الفاحشة هذا الوعيد الشديد المذهل فما بال نشر الكفر إذا؟ والعياذ بالله العلي العظيم.

خاتمة

خاتمة رزقنا الله حسننها - فى بعض التنبيهات الزاكيات

التنبيه الأول: أيها الحبيب لقد أهلك الإنسان العجب والكبرياء، يذنب فإذا قيل له تب، أخذته العزة واستكبر، فلو كان عاقلاً لرأى الهوان والمذلة فى الإصرار على الذنب لا فى الإقلاع عنه.

يا هذا، إن الرجوع إلى الحق لا ينافى منصب العلم بل العودة إلى الحق هو أول ما يدعو إليه العلم واعلم أن الجدال أسوء من كل جهل لا سيما فى الكفریات والعياذ بالله تعالى.

يا هذا إن الإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة، ولا شك أن الإصرار على الكفریات سيؤدى لا محالة إلى قعر جهنم.

يا هذا، لقد ذم الله رب العالمين شخصاً فقال، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسِبْهُ جَهَنَّمَ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٦] فبالله عليك ارحم على نفسك ولا تكن مثله.

يا هذا، إن الله عز وجل قد رد علي قوم فقال، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوُوا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥] وأنا أدعوك إلى الله وأن تؤمن بالله ولا تحيد عنه.

يا هذا، هل تظن أن الرجوع إلى الحق يحقر من شأنك فى أعين الناس وتخشى أن تصاب علومك الفلسفية بالكساد إذا خضعت للحق.

حاشا، إن هذا إلا وسوسة شيطانية فلا تصغ إليها وقرأ لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وتب إلى الله وبذلك تكون عزيزاً عند الله تعالى وأن ما ظننت أن الخلق يستهينون بك إنما هو خطأ محض، بل الناس يرونك منصفاً إن رجعت إلى الحق وإلا يرونك متكبراً شريراً ومتعصباً مفسداً.

يا هذا، أتخشى أن يصير هذا المجيب أعلم منك في أعين الناس إن خضعت للحق، حاشا لله، إن اهتدى عبد من عباد الله على يدي فإنه أقر لعيني وأسر لقلبي بألف مرة من أن يتفوق علمي على أحد لدى الخلق.

أجل أجل، إنك إن أعلنت التوبة ورجعت إلى الحق أكتب لك شهادة بفضلك واعترافا بجهلي، يا هذا، ابتعد عن التعصب قليلا وتفكر في خلوتك هذا الإصرار على الكفر وعاقبته الوحشية خير لك أم لوم بعض الجهال وتحقيرهم بعد توبتك ورجوعك إلى الحق.

هيهات هيهات، إن عذاب الله لشديد وإنه لآتٍ إنما أقول لمصلحتك أنت فلا تؤثر النار على العار.

اللهم اجعل نصيحتي نافعة، اللهم اهد عبدك هذا وثبت قلوبنا على دينك، يا واجد يا ماجد لا تزل عني نعمة أنعمتها عليَّ بجاه من أرسلته رحمة للعالمين وأقمته شفيعا للمذنبين المتلوثين الخاطئين الهالكين وصلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه أجمعين - آمين -.

التنبه الثاني: اعلم إن اشتعلت نار التعصب فيك - لا سمح الله تعالى به - وغفلت عن كل شيء فلا تغفل أننا لا نولي أدنى اهتمام إلى قول فلان هندي ولا إعلان سندي أبداً إذا خالف عقائد القرآن الكريم أو السنة المطهرة وأن الأحكام الشرعية لا تختص بشخص دون شخص العزة لله، إن الشرع حجة على الجميع وليس أحد حجة على الشرع فمن صدر منه هذه الكفريات وأمثالها استحق الحكم بقدر السوء كائناً من كان، إنما نتفق مع هذا أو ذاك ما لم يعارض الدين الحق وإلا فررنا منه بل ومن ظله فرار الأسد عياداً بالله.

اعلم أننا إنما نخضع للقول الذي يوافق القرآن والسنة لا لأنه قول فلان بل لأنه يوافق الصراط المستقيم، فإن كان غير هذا فسواء أكان من زيد أو عمرو أو خالد أو بكر نضرب به عرض الحائط ونتمسك بسنة رسول الله ﷺ ونلوذ بعقبته.

اللهم لا تبعدنا من بابه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، آمين اللهم آمين.
سيدنا محمد العربى ﷺ، عزتنا فى الدارين فمن لم يتدلل لبابه فلا نصيب له من
الكرامة.

التنبيه الثالث، واجب الملاحظة نافع الطلبة:

فليتعض طلبة العلوم فى هذه البلاد فى هذا الزمان، ولينظروا إلى تلك الآفات
المهلكة التى يجرها التوغل فى الفلسفة، أليست تلك الأقوال التى جاء الاستفسار
عنها قد بلغت ما بلغت إلا بسبب تلك الفلسفة الباطلة فقد توقدت نارها الخفية
شيئاً فشيئاً فى غفلة حتى نطحت لظاها عنان السماء.

أيها الحبيب، إن أول ما يخدع الشيطان به هو أن ينفث فى روع الطالب أن
المقصود بالذات هو العلم الدينى والعلوم العقلية إنما هى وسائل وآلات تؤدى إلى
الغرض المنشود والهدف المقصود فلاشتغال بها لا حرج فيها ولا بأس بها، هيهات
وإن سلمنا هذا على إطلاقه، فلننظر إلى أحوال الطلبة واهتمامهم المتناقض
بوسائلهم ومقاصدهم فنجدهم منهمكين فى الآلة ليل نهار ناسين المقصود الرئيسى
نسياناً تاماً، فما أحسن الوسيلة وما أجمل الهدف.

فى الصبح تعلم فى وضوح، مع من قضيت ليلة العشق فى الظلام.
أيها الحبيب، إن كنت تتعلم العلم للآخرة، فوالله إن الفلسفة لضرارة جداً فى
الآخرة، وإن كنت تتعلم للدنيا، فلأن تحصل على الشهادة الثانوية أنفع لك من هذا
فإنه قد ينيلك وظيفة تكسب بها الكفاف.

أيها الحبيب، بالله عليك، أنصف ولا تظلم، إن سنة المصطفى ﷺ تقول إن
العلم تراث الأنبياء عليهم السلام والعلماء ورثة الأنبياء، فانظر هل هو ذلك العلم
الذى عكفت عليه أو هو هذا العلم الذى أهملت وغفلت عنه، انظر بعين الإيمان
وقل بلسان الإسلام، هل نيابتك عن المصطفى ﷺ خير أم تقليدك الأعمى لابن
سينا والفارابى، انظر الطريق من أين يبدأ وإلى أين ينتهى؟

أيها الحبيب إن الشيطان لينث في قلوب هؤلاء بأن العلوم الفلسفية هي التي تليق ببذل الحياة الغالية فيها لأن مداركها عميقة ومسالكها دقيقة فإن ظفرت بها فالعلوم الدينية تأتي إليك عفوا بلا جهد.

غير أن هذا والله خطأ محض، فإنك لم تدق حلاوة هذه العلوم الربانية وإلا لكنت عرفت أن العلوم هي العلوم الدينية التي تحمل في طيها من الدقائق واللطائف والمشوقات والرغائب أكثر بألف مرة مما في هذه العلوم الفلسفية غير أن الناس أعداء لما جهلوا.

دع عنك هذا كله فقد مرت آلاف السنين وسلسلة التدقيقات النفسية والتحقيقات الرائعة متواصلة لا تكاد تنتهي، ولم ينقح مبحث حتى الآن، ولم تصف قضية بعد وقد قال الناس إن العلم ينضج بتلاحق الآراء غير أن الأمر هنا بخلافه تماما بل تعقدت المسائل هنا بتلاحق الآراء.

ألا ترى أن كل واحد من المتقدمين والمتأخرين يأتي مع كل احتشام بتحقيقاته كأنها الحق الجلي ولم يفارقه الحق الصريح والصواب الرجيع ولو لحظة واحدة فلما يخلفه الآخر يأتي بتوهمات جديدة بنفس الاحتفاء والاهتمام فتسفه العاقل السابق وربما يجعل هذا الجديد ذلك القديم عقبا على رأس، ولا تكاد تعرف هذه السلاسل أي حد حتى يأتي أمر الله والمعضلات كما هي لم ينقح شيء منها.

كل من جاء بنى دارا ، ومات عنها فخلفه الآخر يعمرها

فأخبروني ما هي نتيجة هذه الضوضاء؟ وما حصاد هذه المعارك الحامية؟

فلما حان الأجل وقرب الموت غاب عنه كل شيء وتبين أن كل ما تعلم إنما كان أسطورة من الأساطير لا حقيقة لها.

فمنهم من يعرض على يديه تحسراً وندماً في حالة الاحتضار ويقول يا ويلتي

ضاع عمري ولم أحقق شيئاً سوى أن كل ممكن محتاج وأن الإمكان أمر عدى
فرحل من هذه الدنيا خاوى الوفاض^(١).

الأمر الثانى، أن حصول العلوم الدينية بمجرد حصول العلوم الفلسفية عفا
وتلقائيا لا شك وهم باطل فضيع لا وجود له إلا فى أذهانكم فقط صحيح ما يقال
أن الاحتياج إلى الشيء يرفع من قيمته ويعلى قدره، وتكلف أحد من الفلاسفة
بأن يحل عشر مسائل دينية فقط عن طريق تفلسفه تعرف مدى أهمية هذه العلوم
الفلسفية وإلا فاللسان مطلق العنان فى سعة الميدان، والمثل مشهور لا يصف أحد
روبه بالحموضة.

أيها الحبيب، إن هذه المناهج الدراسية التى تدرس للطلبة فى هذه البلاد، ربما
يظنها السفيه منتهى العلوم وغايتها، غير أن الأمر على عكس ذلك تماماً لأن هذه
المقررات تشتمل على مبادئ العلوم الأساسية ويقصد من ورائها تنمية الاستعداد
والمملكة لدى الطلبة، أما العلم الحقيقى فبعيد جداً، ولقد صدق من قال، يجب
السفر الطويل لتكتمل الخبرات العلمية.

ألا ترى أن الطالب المسكين قد هضم الشفا^(٢)، والإشارات بأكملها ولم يدر
بعد من أين تكتسب أصول الدين، ولم يعرف ما يجب اعتقاده فى شأن الله عز
وجل ورسوله ﷺ فإن علم شيئاً فرمى عن طريق السماع والتقليد، أما مسائل الحلال
والحرام فلا تسأل عنها، من المؤسف حقاً أن واضع المناهج الدراسية إنما قرر عدداً
زهيداً من الكتب الدينية وأكثر من الكتب المنطقية ليتعود الطلبة على التفكير

(١) وما أحسن ما يصور هذه الحيرة الفلسفية فى آخر لحظات الفيلسوف فى الحياة:

لقد طفت فى تلك المعاهد كلها وسرحت طرف بين المعالم

فلم أر إلا واضعا كسف حوائر على ذقن أو قارعا سن نادم (محمد جلال رضا)

(٢) الشفا والإشارات كتابان شهيران لابن سينا فى الفلسفة والمنطق كان الطلبة الهنود يدرسونهما
ضمن المقررات الدراسية بشراهة فى عصر المؤلف - رحمه الله تعالى - (محمد جلال رضا).

والتأمل لئلا تضرهم فيما بعد الأوهام الباطلة بعد رسوخ المبادئ الدينية بيد أن الأمر قد انعكس كلياً فاجتاحتهم الآفات الفلسفية والاصطلاحات الحرة مثل لم، ولا نسلم، أما المبدأ الأساسى فقد قامت القيامة عليه «أيها العزيز» لقد روى الإمام أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان والحاكم والبيهقى وعبد بن حميد والبغوى بأسانيد صحيحة عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ : «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت فى قلبه نكتة سوداء فإن هو نزع واسغفر وتاب صقل قلبه وإن عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه، وهو الران الذى ذكر الله تعالى : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، ألا فاحذر لئلا تشكل هذه الفلسفة المزخرة نكتة سوداء فى قلبك ووصمة ظلماء فى ذهنك بحيث لا تبقى فيه سعة لاستقبال العلوم الحقة الصادقة الربانية بعده هل تظن أن العلوم الدينية إنما تحصل بمجرد حصول العلوم الفلسفية تلقائياً؟ حاشا، بل الواقع على العكس تماماً، فلو استقرت هذه الأوهام ورسخت أقدامها فى قلبك فلن تتطرق إليه العلوم الربانية أبداً لأنها نور والنور لا يتألق إلا فى المرآة الصافية المصقولة.

أيها الحبيب، لا يزدري العلوم الربانية المتوغلون فى الفلسفة العاكفون عليها إلا بسبب تلك النكتة السوداء وبذلك يستهزؤون بعلماء الدين ويستجهلونهم، ويرون لقب العلم وقفا عليهم.

لو كانت مرآة قلوبهم صافية مصقولة لرأوا أن هؤلاء العلماء الربانيين هم النواب عن المصطفى ﷺ وهم الورثة الحقيقيون له، وما أنفس تلك الثروة التى يحملونها فى قلوبهم والستى أنزل المولى تبارك وتعالى لأجلها الكتب وقضى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أعمارهم لتبليغها إلى الناس وتفهمها لهم، فلا شك أنهم عمائد الإسلام وطرق الجنة وأرواح الهداية، وهم محبوبون ومرضىون لديه تعالى، أما الذين ظلموا يستهزئون بهم فيسذوقون وبال أمرهم اليوم أو غدا والغد قريب وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون.

أيها الحبيب، إن النفس المغرورة بذاتها قد ضلت في ملذات أقول واستغرقت فيها فنسيت تلك المتع الدائمة التي أودعها الله تعالى في أحاديث الرسول ﷺ ومدارستها وغفلت عن تلك الحلاوة التي تسر القلوب وتقر العيون.

هيهات أين ذلك الفن الذي يقال فيه «أنا أقول، أو ابن سينا قال» مما يقال فيه «قال الله عز وجل» أو قال الرسول ﷺ؟

اعلم أن نفس الفرق الذي تجده بينك وبين المصطفى ﷺ هو الفرق بين «أقول» و«قال» وكذلك التفاوت بين العلمين،

لله در العالم القرشي سيدنا الإمام الشافعي رضي الله عنه الذي قال:

كل العلوم سوى القرآن مشغلة إلا الحديث وإلا الفقه فه الدين

العلوم ما كان فيه قال حدثنا وما سوى ذلك وسواس الشياطين

كل ما قال الله عز وجل وقال الرسول ﷺ هو العلم وما سواهما فضلة فاشتغل بالفضلة أيها الفضول، أيها العزيز، فكر بالله عليك هل تسأل يوم القيامة عن العقائد والأعمال أم تسأل عن الكل الطبيعي أهو موجود في الخارج أم غير موجود والزمان قار أو غير قار وهل الحركة بمعنى التوسط الموهوم، هل تسأل عن هذا أو ذلك.

أيها الحبيب، إنى لا أمتنع عن تعلم المنطق والفلسفة الإسلامية وأقسامها الجائزة مثل الرياضيات والهندسة.

تعلم ولكن بقدر الضرورة ولا تنهمك فيها كلية فتغفل عن المقاصد الأساسية بل عليك بالعلوم الدينية فإنها الصراط المستقيم، هذا، ولا إكراه في الدين والله يهدي من يشاء إلى الصراط المستقيم.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وقع الفراغ من تسويد هذه الأوراق لسبع خلون من الشهر السابع من العام الرابع من المائة الرابعة من الألف الثاني من هجرة سراج الأفق إمام الخلق نبي الرفق ذي العلم الحق الحكيم الرياني، صلوات اله تعالى وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وكل مشتاق إليه برحمتك يا أرحم الراحمين، والحمد لله رب العالمين، والله تعالى أعلم وعلمه جل مجده أتم وأحكم.

كتبه عبده المذنب أحمد رضا عفى عنه بمحمد المصطفى النبي الأمي ﷺ.
لله درّ المجيب حيث أتى بتحقيق أنيق ثمقه العبد المذنب الأواه مجهد لطف الله خادم شريعة رسول الله ﷺ - محمد لطف الله ١٢٩٨هـ.

لا شك أن هذه المعاني التي نقلها المجيب عن الرسالة «المنطق الجديد» مخالفة للشرع الشريف ومعارضة لعقائد المسلمين الحقّة سلفاً وخلفاً ولقد أبان المجيب المصيب عن مفاسدها وأظهر قبائحها على أحسن وجه فجزاه الله سبحانه وتعالى عن المسلمين أحسن الجزاء.

محمد إرشاد حسين أحمددي ١٢٨٤هـ.



التحبير بباب التدبير

تأليف

مولانا الإمام أحمد رضا خان الحنفي

١٢٧٢هـ/١٣٤٠هـ = ١٨٥٦م/١٩٢١م

ترجمه من الأردية

محمد جلال رضا الهندي

قسم التفسير

كلية أصول الدين

جامعة الأزهر الشريف

القاهرة ، مصر

إهداء

إلى روح الإمام العارف بالله سيد العارفين
وسند السالكين وفدوة الأولياء وحبّة
الأصفياء، مولانا الشاه السيد آل رسول المارهوري.
رحمه الله تعالى. وقدس سره.

الذي أنار آف المسلمين من الخواص والعوام ببركاته
الرواحانية وفيوضه الربانية، وشحنهم بشحنات إيمانية قوية
عن طريق التزكية والتخليّة على المنهج القرآني الحكيم،
والطريقة النبوية المطهرة.

ومنذ الأمة الإسلامية من مريديه أعظم عالم رباني
وطبيب روحاني أعني الشيخ الإمام أحمد رضا خان
الحنفي قادري.

فجزاهما الله خير الجزاء ورفع درجاتهما في
أعلى عليين مع النبيين والصديقين
والشهداء والصالحين.

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلي على رسوله الكريم

أما بعد:

نستفسر السادة العلماء عن حكم شخص يدعى خالدًا الذي يعتقد أن كل خير وشر بقضاء الله عز وجل وقدره وإلى جانب ذلك يستحسن العمل والتدبير في الأمور الدينية أو الدنيوية. غير أن وليدًا يكفر خالدًا بناءً على استحسانه العمل والتدبير واعتقاده بالعمل والحركة ويقاطعه مقاطعة كلية ويعرض عن التسليم عليه ورد السلام إذا سلم عليه خالد، ويرفض التدبير في كل أمر من الأمور ويرى التدبيرات من الواهيات الباطلة. ويقول إن الذين يعلمون أولادهم اللغة العربية أو الإنجليزية إنما يضيعون الوقت دون جدوى. بدعوى أن التعليم والتعلم أيضًا من التدبير.

والمطلوب توضيحه من السادة العلماء، ما هو الحكم الشرعي في تكفير وليد خالدًا؟، وهل خالد كافر كما زعم وليد؟

«المستفتى الشيخ يار خان ٢٠ ذو الحجة ١٣٠٥هـ»

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى قدر الكائنات، وربط بالأسباب المسببات، والصلاة والسلام على سيد المتوكلين، سرّاً وجهراً، وإمام العالمين والمديرين أمراً وعلى آله وصحبه الذين باطنهم توكل وظاهرهم فى الكد والعمل.

لا شك أن خالدًا محقق في اعتقاده وعقيدته عقيدة أهل الحق من المسلمين بأن كل ما يحدث فى العالم من صغير أو كبير إنما يحدث على ما مضى من قضاء الله عز وجل وقدره فى الأزل. قال عز وجل: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [القمر: ٥٣].

وقال تعالت عظمتها: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].
وقال عز وجل ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وغير ذلك من الآيات والأحاديث.

ولا يعنى الإيمان بالقضاء والقدر إبطال التدبير^(١)، فإن هذه الدنيا عالم الأسباب وقد ربط الرب جل مجده المسببات بالأسباب بحكمة بالغة وقد جرت السنة الإلهية فى هذا العالم أن يحدث المسبب بعد حدوث السبب، واعلم أن التوكل على القضاء والقدر والاعتماد عليها ليسا إلا من دأب الكفار الجاحدين كما أن رفض التدبير وتعطيله من أفعال الضالين المكذبين، أو من شطحات المجانين الكاملين، حيث إنه يستلزم تكذيب المثبات من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، كما يطمعن ذلك فى ذوات الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - جميعاً ويقدم فى شأن الأئمة الأخيار والأولياء الصالحين جميعاً.
ومن يتسنى له توكل كتوكل حضرات المرسلين، - صلوات الله وسلامه عليهم

(١) وللمؤلف العلامة رسالة رائعة فى حتمية الإيمان بالقضاء والقدر على غرار هذه الرسالة التى بين أيدينا تسمى بـ «تلج الصدر لإيمان القدر» محمد جلال رضا.

أجمعين - وهل من أحد أوثق إيماناً بقضاء الله تعالى وقدره، من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام؟ ومع ذلك قد أخذوا بالأسباب وعلموا الناس ذلك بل رغبوا فيه بأنواع الترغيبات بل وسَعَوْا في كسب الرزق الحلال الطيب بذواتهم.

١- فهذا هو سيدنا داود عليه السلام يصنع الدروع بيديه كما أخبرنا المولى عز وجل بذلك في القرآن الحكيم: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صِنْعَةَ لُبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

٢- وقال المولى عز وجل: ﴿وَاللَّا لَهُ الْحَدِيدُ * أَنْ اْعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١٠/١١].

٣- وقد قام سيدنا موسى عليه السلام برعى الغنم على أجرة لسيدنا شعيب عليه السلام لمدة عشر سنوات فقد أخبرنا بذلك المولى فقال: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجِرَنِي ثَمَانِي حَجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٧، ٢٨، ٢٩]. وها هو سيد الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد عليه السلام يسافر إلى بلاد الشام بمال السيدة خديجة - رضى الله تعالى عنها - على سبيل المضاربة ليتجر فيه، ولا يخفى على من له أدنى إلمام بالتاريخ أن أمير المؤمنين الخليفة الثالث سيدنا عثمان الغنى، وسيدنا عبد الرحمن بن عوف كانا من التجار المشهورين فى عهدهما، وها هو سيدنا الإمام أبو حنيفة النعمان - قدس سره - يباشر تجارة الأقمشة.

بل وليد نفسه الذى يرفض التدبير بأسره، هل هو فى معزل عن التدبير فى الواقع

فى حىاته اللىومىة؟ افترضنا أنه لا ىباشر زراعة أو تجارة ولا ىشغل نفسه فى وظىفة أو مهنة سلمنا أنه فى غنى عن هذا وذلك إلا أنه يقوم بالطبخ أو ىطلب تحضىر الوجبة من غىره ورىما ىطحن وىعجن ولا ىستغنى عنه بشر فإذا كان كذلك فقد ارتكب التذىر الذى حاول الفرار منه، دع عنك هذا أىضاً ولنفترض أن الطعام ىأتى إىله مطبوخاً جاهزاً بدون طلب أو إشارة أو إىماء غىر أنه ىتناول وجبته بالىد وىرفعها إىلى الفم وىمضغ وىبتلع، وهذا أىضاً من التذىر فإن كان ولىد حاسماً فى إبطال التذىر وجاهداً فى تعطىل السبب فىلهمل هذه الأسباب كلها جملة وتفصىلاً.

لأن الحىاة إذا كانت مقدرة فى قضاء الله تعالى عز وجل وقدره فسىعىش رغم أنفه شاء أم أبى أكل أو لم ىأكل.

كما ىمتلأ البطن تلقائياً، وىصل الغذاء إىلى المعدة بالقضاء الإلهى بدون حركة من العبد، ولا ىخفى عىلك أن الماء لىس بمرو فى حد ذاته ولىس الطعام بمشبع من نفسه عند أهل السنة والجماعة، بل هذه كلها من الأسباب العادىة التى رىبطها الخالق القذىر الحكىم عز وجل بمسبباتها وىخلق الرى والشبع عقب تناولهما على سسته التى أجزاها فى هذا الكون وإلا فلن ىروى العطشان وإن شرب الجرار ولن ىشبع الجوعان وإن التهم الأطنان وقد علمت ما ىحدث مع مرض الاستسقاء وجوع البقر فإن الماء الذى كان ىرويه قبل لم يعد ىجدى شىئاً معه، والطعام الذى كان ىشبعه قبل لم يعد ىغنى من الجوع شىئاً واعلم أن المولى عز وجل لو شاء لن ىقترب الجوع أو العطش سنوات وإن لم ىأكل ولم ىشرب مطلقاً ألا ترى أن الله تعالى سىحى المؤمنىن بدون طعام وشراب فى زمن الدجال اللعىن كما أن الملائكة ىعىشون بلا حاجة إىلى الأكل والشرب غىر أن ذلك يعد فى الإنسان من قسىل الخوارق ولىس ذلك على الله بعزىز، وبذلك لا ىكون إبطال التذىر إلا ناشئاً عن الجهل والحماقة ومن هنا قال الفقهاء لو مات أحد بسبب التواكل الكاذب على قضاء الله تعالى وقدره، مهملاً الأكل والشرب مات مىة محرمة وىلقى الله تعالى

وهو عليه غاضب ولا يخفى أن الموت أيضاً بقضاء الله تعالى وقدره ومع هذا:

٤- قد قال الله المولى عز وجل: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] ولله در القائل أن الموت بالقضاء ولكن لا تلق بنفسك فى التهلكة سلمنا أن وليداً قائم على عهده كالجبل الراسخ وقد هجر الأسباب بأسرها فعلا وقد ودع التدبير وداعا لا عودة فيه فلم يلجأ إلى سبب لا إشارة ولا كناية وعزم على نفسه ألا يأكل فى حال من الأحوال وإن أدى ذلك إلى الموت والهلاك اعتماداً على قضاء الله وقدره ولا شك والحال هذه أن يلجأ إلى المولى عز وجل بالدعاء والطلب وبذلك يكون قد أخذ السبب من حيث لم يدر أنه أخذ السبب، لأن الدعاء ليس مؤثراً بذاته وإنما هو سبب لحصول المراد، ولم نعن بالتدبير إلا هذا.

٥- يقول المولى عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] وربنا تبارك وتعالى قادر على تحقيق المراد بدون دعاء أو طلب إلا أنه وجه العباد إلى هذا التدبير وأكدته بتأكيد بالغ فى الحديث النبوى الشريف:

١- «من لم يدع الله غضب عليه» رواه الأئمة أحمد فى المسند وأبو بكر بن أبى شيبه فى المصنف واللفظ له والبخارى فى الأدب المفرد، والترمذى فى الجامع وابن ماجه فى السنن والحاكم فى المستدرک عن أبى هريرة رضى الله عنه.

بل الخلافة والسلطة والقضاء والجهاد والحدود والقصاص وغيرها من الأمور الشرعية الأخرى إنما هى من التدبيرات التى فرضها الله عز وجل لتنظيم شئون العالم وإشاعة الدين وردع المفسدين المعتدين لتعود منافعها للخلق.

٦- قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

٧- قال عز وجل ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

٨- وقال تعالت عظمته ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

٩- وقال جل جلاله ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهْدِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

فقد لاحظت في هذه الآية الكريمة أن الجهاد إنما فرض ليقضى على الفتنة ويخلو الطريق للدين الحق وليتشر ضيائه في ربوع العالم ولولا الجهاد لفست الأرض، ولانطمست المساجد والمعابد.

١٠- وقال المولى تعالى شأنه: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] الفتنة أى ظهور الكفر وفساد كبير أى ضعف الإسلام.

١١- وقال عز وجل: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩] ففى القصاص حياة لأنه يكف أيدى المفسدين عن التطاول والاعتداء وبذلك تحقن دماء الأبرياء ولأجل ذلك أمر الله عز وجل أن يشهد عذاب المعتدين جماعة من المسلمين ليكون ذلك موعظة وذكرى لهم.

١٢- فقال تعالت عظمته: ﴿وَلَيْشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢] بل الصلاة والصيام والحج والزكاة وغيرها من العبادات البدنية والمالية أيضاً تدبير من التدابير الدينية الشرعية وسبب من أسباب إرضاء المولى عز وجل ووسيلة من وسائل الثواب الجزيل وطريق من طرق النجاة من غضبه وعذابه.

١٣- قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

وقال المولى عز وجل: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، وقد أوجب المولى عز وجل السعي على العباد مع أن كلا ميسر لما خلق له لحكمة بالغة وقال المولى عز وجل: ﴿فَسَنِيْسِرْهُ لِلْيَسْرَى﴾ [الليل: ٧] وقال تعالى شأنه: ﴿فَسَنِيْسِرْهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ١٠].

ومن هنا قال النبي ﷺ ما أخرجه الأئمة أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم عن أمير المؤمنين علي - كرم الله تعالى وجهه -

٢- قال: «كان النبي ﷺ في جنازة فأخذ شيئاً فجعل ينكت به الأرض فقال ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة قالوا يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل (زاد في رواية فمن كان من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة) فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ: ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى﴾ الآية ومن هنا اتضح أن إهمال التدبير مطلقاً يؤدي إلى إلغاء الدين وتعطيل الشرائع، وبطلان إنزال الكتب وإرسال الرسل وضباع أداء الفرائض واجتناب المحرمات والعياذ بالله تعالى.

وبذلك يبقى الإنسان مطلقاً العنان، فيختل نظام الدنيا والآخرة جملة واحدة كلا ثم كلا، إن التدبير مستحسن بلا ريب بل بعضه مندوب ومسنون كالأدوية والأدعية.

والأحاديث التي وردت في باب الدعاء قد بلغت مبلغ التواتر حتى قال النبي ﷺ في أهمية الدعاء وأثره الفعال:

«لا يرد القضاء إلا الدعاء» (والمراد هنا من القضاء هو القضاء المعلق) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم بسند حسن عن سلمان الفارسي رضي الله عنه.

٣- وقال سيدنا المصطفى ﷺ في حديث آخر «لا يغني حذر من قدر والدعاء ينفع مما نزل، ومما لم ينزل إن البلاء ينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة» (أي يمنع الدعاء نزول البلاء) رواه الحاكم والبخاري والطبراني في الأوسط عن أم المؤمنين الصديقة رضي الله تعالى عنها - قال الحاكم صحيح الإسناد. ومن أراد

مزید الاطلاع على الأحاديث المجملّة والمفصلة الكلية والجزئية فى باب الدعاء فعليه بمؤلفات العلماء الكرام من «الترغيب» و«الحصن» والعدة و«الصلاح» وغيرها.

٤- وقال النبى ﷺ : «تداووا عباد الله فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواءً غير داء واحد الهرم» أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان والحاكم عن أسامة بن شريك رضى الله عنه بسند صحيح وقد وردت أحاديث كثيرة بشأن تداوى النبى ﷺ بالأدوية وتوجيه أمته إلى المثات من الأدوية الناجعة للأدواء المختلفة كما هو مسطور فى مختلف الفنون الحديثية من الطب النبوى والسيرة وغيرها بل التدبير يصبح فريضة حتمية فى بعض الحالات الخطيرة كالأكل والشرب بقدر ما يسد الرمق حتى أبيحت الميتة والخمر فى حالة المخمصة وإقامة الفرائض والاجتناب عن المحرمات وكذلك مباشرة ما من شأنه صيانة النفس من الهلاك وطلب الكسب الحلال الطيب لنفسه وعياله فقد قال المصطفى ﷺ.

٥- «طلب الكسب الحلال فريضة بعد الفريضة» أخرجه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى شعب الإيمان والديلمى فى مسند الفردوس عن ابن مسعود رضى الله عنه.

٦- وقال ﷺ : «طلب الحلال واجب على كل مسلم» أخرجه الديلمى بسند حسن عن أنس ابن مالك رضى الله عنه ولذلك وردت فضائل كثيرة لطلب الكسب الحلال الطيب وقد قال النبى ﷺ كما فى مسند أحمد وصحيح البخارى.

٧- «ما أكل أحد طعاما قط خير من أن يأكل من عمل يده وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده» أخرجاه عن مقدم بن معدى كرب رضى الله عنه.

٨- «وقال النبى ﷺ : «إن أطيب ما أكلتم من كسبكم» أخرجه البخارى فى التاريخ والداري وأبو داود والترمذى والنسائى عن أم المؤمنين الصديقة - رضى الله تعالى عنها - بسند صحيح قد سئل رسول الله ﷺ : «أى الكسب أفضل؟ فقال:

٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣ - «عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور» (والمراد من البيع المبرور هى التجارة التى تخلو عن المفساد الشرعية) أخرجه الطبرانى فى الأوسط والكبير بسند الثقات عن عبد الله ابن عمر وأحمد والبزار عن أبى بردة بن خيار وأيضاً هذان عن رافع بن خديج والبيهقى عن سعيد بن عمير ومرسلاً والحاكم عنه عن أمير المؤمنين عمر الفاروق رضى الله عنه وروى أن رسول الله ﷺ قال:

١٤ - «إن الله يحب المؤمن المحترف» أخرجه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى الشعب وسيدى محمد الترمذى فى النوادر عن ابن عمر رضى الله عنه وقد رورد أن رسول الله ﷺ قال :

١٥، ١٦، ١٧ - من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفوراً له» أخرجه الطبرانى فى الأوسط عن أم المؤمنين الصديقة ومثل أبى القاسم الأصبهانى عن ابن عباس وابن عساكر عنه وعن أنس رضى الله عنه وقال: ﷺ

١٨ - «طوبى لمن طاب كسبه» أخرجه البخارى فى التاريخ والطبرانى فى الكبير والبيهقى فى السنن والبغوى والبارودى وأبناء قانع وشاهين ومندة كلهم عن ركب المصرى رضى الله عنه فى حديث طويل قال ابن عبد البر حديث حسن قلت أى لغيره.

وقال المصطفى ﷺ :

١٩، ٢٠ - «الدنيا حلوة خضرة من اكتسب منها مالاً فى حله وأنفقه فى حقه أثابه الله تعالى عليه وأورده جنته» أخرجه البيهقى فى الشعب عن ابن عمر - رضى الله تعالى عنهما - قلت والمثنى عند الترمذى عن خولة بنت قيس امرأة سيدنا حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه بلفظ «إن هذا المال خضرة حلوة فمن أصابه بحقه بورك له فيه» قال الترمذى حسن صحيح قلت وأصله عن خولة عند البخارى مختصراً.

وقال ﷺ :

- ٢١ - «إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها الصلاة ولا الصيام ولا الحج ولا العمرة يكفرها الهموم في طلب المعيشة» رواه ابن عساكر وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة رضي الله عنه.

- ٢٢ - رأى الصحابة - رضي الله عنهم - رجلاً يسرع نحو عمله فقالوا : يا رسول الله ﷺ «ليت هذا السعى في سبيل الله» فقال ﷺ : - ٢٢ - «إن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله وإن كان يخرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله وإن كان يسعى رياءً ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان» رواه الطبراني عن كعب بن عجرة رضي الله عنه ورجاله رجال الصحيح ولذلك ورد نهى واضح عن البطالة وترك الكسب.

فقال المصطفى ﷺ :

- ٢٣ - «ليس بخيركم من ترك دنياه لأخرته، ولا آخرته لدنياه، حتى يصيب منهما جميعاً، فإن الدنيا بلاغ إلى الآخرة، ولا تكونوا كلاً^(١) على الناس، يصيب منهما جميعاً فإن الدنيا بلاغ إلى الآخرة. ولا تكونوا كلاً على الناس» رواه ابن عساكر عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

وقد تبين من خلال هذه الأحاديث الشريفة أن طلب الكسب الحلال الطيب والسعى فيه لا يتنافيان التوكل على الله عز وجل بل السعى والعمل مما يرضى المولى عز وجل غير أن شأن المؤمن أن يعمل أولاً ثم يتوكل على المولى القدير جل جلاله.

- ٢٤ ، ٢٥ - فعن عمرو بن أمية الضمري الكنانى قال : «يا رسول الله أرسل راحلتى وأتوكل قال: بل قيد وتوكل» أخرجه البيهقي في الشعب بسند جيد عن عمرو بن أمية الضمري والترمذي في الجامع عن أنس رضي الله عنه واللفظ عنده «أعقلها وتوكل». انظر كيف أمر النبي ﷺ بالتدبير والتوكل وجمعهما في كلمتين

(١) كان قد سقط من هذا الحديث الشريف بعض الكلمات في أصل الكتاب وقد كملناه كما في مرجع الحديث الأصلي. محمد جلال رضا.

من كلامه الجامع وفيه قال مولانا - قدس سره - فى المثنوى الشريف: «توكل على الله عز وجل ولكن حرك اليدين والرجلين لأن رزقك أسرع إليك منك إليه».

وقد أمرنا المولى عز وجل فى القرآن العظيم بالطلب والسعى وحث على التدبير والكسب ووجهنا إلى الأخذ بالأسباب قال تعالى:

١٤- ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ * لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٧، ١٩٨].

وكان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن متوكلون فأنزل الله عز وجل هذه الآية وكان بعض الصحابة الكرام يتخرجون فى موسم الحج ويخشون فوات الإخلاص فى الحج فنزلت: ﴿ليس عليكم جناح﴾.

وكذلك يزخر القرآن الكريم بالآيات المباركة التى تدعو إلى ابتغاء فضل الله عز وجل ومنها يقول المولى تبارك وتعالى:

١٥- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة ٣٥].

فقد رأيت أن الله عز وجل قد وضح أن الفلاح فى ابتغاء الوسيلة فلو كانت الأسباب معطلة مهملة لما كانت هناك حاجة إلى ابتغاء الوسيلة، بل التدبير أيضاً من القدر وليس بخارج عنه إذا رأينا المسألة بعين الإنصاف، والأخذ بالأسباب ليس بخارج على القدر ولا هو بمتعد على القضاء.

وقد سئل النبى ﷺ هل ينفع الدواء من القدر قال:

٢٦- الدواء من القدر ينفع من يشاء بما يشاء «رواه ابن السنى فى الطب والديلمى فى مسند الفردوس عن ابن عباس رضى الله عنه وصدره عنه عند أبي نعيم والطبرانى فى المعجم الكبير».

٢٧- أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسرّ

لقيه أمراء الأجناد، أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام. قال ابن عباس فقال عمر ادع لي المهاجرين الأولين فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام، فاختلفوا، فقال بعضهم: قد خرجت لأمر، ولا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي الأنصار، فدعوتهم فاستشارهم، فسلخوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي من كان هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم، فلم يختلف منهم عليه رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس، ولا تقدمهم على هذا الوباء فنأدى عمر في الناس: إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه. قال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة؟! نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل هبطت وادياً له عدوتان، إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟

أخرجه الأئمة منهم مالك وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن عباس - رضى الله تعالى عنهما -

أجل! إن انهماك الإنسان كلياً في تنظيم الأسباب وتقويمها لمصالحه والاستحواذ على حطام الدنيا بالحلال والحرام بدون اهتمام بالمشروع وغير المشروع وجمع الدنيا بأي طريق متفق لا شك مذموم وممنوع ولا يرتكب هذا إلا من نسي القضاء والقدر وغفل عن مسبب الأسباب واعتمد على التدبير وأسند ظهره إليه وهنا يبادر الشيطان بحيله وينفخ في أذنيه ويملى عليه مكايده لو عملت هذا فستنال مرامك وإلا ترى وجه الفشل الكالغ وحيثئذ ينسى الإنسان قضاء الله وقدره ويستسلم للوساوس الشيطانية فيجهد نفسه في اتخاذ كل سبب يراه خادماً لمصلحته فيركب الهوان والدناءة ويتذرع بالتملق والتحايل ويلجأ إلى المكر

والخديعة ولم يدر المسكين أن هذا الحرص والشره لا يؤديان إلى شيء ولن ينال إلا ما قد كتب له في الأزل فإن الرزق الذي تكفل الله تعالى به لن يخطأه إلى غيره وإن حلى نفسه بعلو الهمة والتزم صدق النية واحترم كرامته وتمسك بأحكام الشرع غير أن حرصه وشره قد أهلكا في الدنيا والآخرة حتى خسر الدنيا والآخرة.

وإن جمع بعض الحطام من هذه الدنيا الفانية عن طريق الغش والتزوير والمكر والخديعة وبعد إراقة ماء الوجه فتباً لهذه الثروة مهما كانت ضخمة ولله در القائل:

بئس المطامع حين الذل تكسبها القدر متصب والقدر مخفوض

ولذا قال المصطفى ﷺ:

٢٨- «أجملوا في طلب الدنيا فإن كلا ميسر لما كتب له منها» رواه ابن ماجه والحاكم والطبراني في الكبير والبيهقي في السنن وأبو الشيخ في الثواب عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه بإسناد صحيح واللفظ للحاكم وقال ﷺ:

٢٩، ٣٠- «يا أيها الناس اتقوا الله وأجملوا في الطلب فإن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها فإن أبطأ منها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب خذوا ما حل ودعوا ما حرم رواه ابن ماجه واللفظ له وقال صحيح على شرطهما وبسند آخر صحيح على شرط مسلم وابن حبان في صحيحه كلهم عن جابر بن عبد الله وبمعناه عند أبي يعلى بسند حسن إن شاء الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤- وقال ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته» أخرجه أبو نعيم في الحلية واللفظ له عن أبي أومامة الباهلي والبخاري في «شرح السنة» و«البيهقي» في الشعب والحاكم في المستدرک عن بن مسعود والبخاري عن حذيفة بن اليمان ونحوه للطبراني في الكبير عن الحسن بن علي أمير المؤمنين

رضى الله عنه غير أن الطبراني لم يذكر جبريل عليه السلام وروى أنه ﷺ قال:
- ٣٥- «اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجري بالمقادير» رواه تمام في فوائده
وابن عساكر في تاريخه عن عبد الله بن بسر رضى الله عنه.

فقد لاحظت أن هذه الأحاديث النبوية الشريفة تدعو إلى السعى والطلب
وتندب إلى التدبير والعمل ولكن تحث إلى جانب هذا على التزام الشريعة
والتحلى بعزة النفس والتمسك بالعفة.

أى لا تشتغلوا بترتيب الأسباب ذاهلين بل عليكم العمل باليد والقلب معلق
بذكر المولى الكريم أيديكم بالأسباب وقلوبكم بخالق الأسباب فى الظاهر هنا
وفى الباطن هناك جوارحكم بالأسباب وبواطنكم بمسبب الأسباب وعلى هذا
المنهج ينبغى أن تسير عجلة الحياة هذه هى طريق الهدى وبها قد رضى الإله رب
العالمين وهذه هى سنة الأنبياء وهذه هى سيرة الصالحين - عليهم جميعا الصلاة
والثناء - ومهما يكن من أمر فإن هذا هو المنهج القويم فى هذا الشأن وهذا هو
الصراط المستقيم وما سواه من نسيان القضاء والقدر أو إبطاله وتعطيل التدبير
وإهماله فما ذلك إلا ضلال مبين وجنون فاضح والعياذ بالله رب العالمين.

اعلم أن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة التى تندب إلى السعى والعمل
كثيرة جداً بحيث يتعذر إحصائها ويعسر استيعابها بل لا أخشى أن أدعى بأن عدد
الآيات والأحاديث فى هذا الباب ربما يتجاوز عشرة آلاف لو بذلنا شيئاً من الجهد إن
شاء الله تعالى غير أنه لا داعى إلى ذلك:

وليس يصح فى الأذهان شيء إذ احتاج النهار إلى دليل

ولا نرى من جدوى فى الإسهاب والتطويل فى هذه المسألة البينة التى يتوقف
عليها نظام العالم أليس هذا المؤلف بكاف الذى أورد فيه العبد الفقير خمس عشرة
آية من الآيات القرآنية وخمسة وثلاثين حديثاً أى ما بلغ مجموعها إلى خمسين

نصاً من النصوص الشرعية البينة وإلى جانب ذلك قد أشرت إلى المثات بل الآلاف من النصوص وما ذلك بيسير.

وما أسلفنا لك من الأدلة قد تبين بوضوح أن جحود السعي والعمل في غاية من الحماسة التي هي من أخبث الأمراض، وأن الطعن في التدبير إنما هو طعن مباشر في القرآن الكريم والسنة المطهرة وجرأة فاضحة على الله عز وجل ورسوله ﷺ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقد وجب على وليد أن يتوب إلى الله عز وجل من قوله الذي قال وأن يبنى عقيدته على مقتضيات القرآن الكريم والسنة المطهرة من جديد وإلا فليؤثر الضلالة وعواقبها الوخيمة على الهداية وثوابها الجزيل والعياذ بالله رب العالمين.

أما قوله الشنيع في تعلم اللغة العربية وتحصيل العلوم فإنه كلمة كفر صريحة لو لم يحتمل التأويل إذ القائل ربما أراد الطعن في أر باب الدنيا الذين يريدون جمع الحطام بتعلم العلوم ولا شك أن هؤلاء وأمثالهم يستحقون الطعن والذم فلولا هذا التأويل لكان وليد مهيناً للعلوم الدينية بقوله المذكور في الاستفتاء، وتحقير العلوم الدينية كفر كما هو واضح أما تكفير وليد خالداً لاستحسانه التدبير مع الإيمان بالقضاء والقدر فإنه أمر شديد يجب الحذر منه ولا يخفى أن الإيمان بالقضاء والقدر واستحسان التدبير هو العقيدة الحقة الصحيحة وما بعد الحق إلا الضلال وتكفير المسلم ليس أمراً يستهان به فقد ورد في الأحاديث الصحيحة.

- ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩ - إذا قال الرجل لأخيه «يا كافر» فقد باء بها أحدهم.

كما أخرجه الأئمة مالك وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن عبد الله بن عمر والبخاري عن أبي هريرة وأحمد والشيخان عن أبي ذر وابن حبان بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنهم بأسانيد عديدة وألفاظ مباينة ومعاني متقاربة وهذا هو مذهب أهل السنة المحقق المنقح في هذا الباب ومع ذلك يجب علينا الاحتياط والحذر من تكفير المسلم والتكفير لأجل هذا القول ممنوع

وغير مناسب لأن الأحاديث السالفة تحتل احتمالات عديدة وقد عمل بظاهر هذه الأحاديث مئات من الأئمة كالإمام أبى بكر والأعمش ومعظم فقهاء بلخ وغيرهم - رحمهم الله تعالى أجمعين - حيث قد كفروا من كفر مسلما كما فصلنا كل ذلك فى رسالتنا «النهى الأكيد عن الصلاة وراء عدى التقليد» ولكن يجب على وليد أن يأتى بكلمة الإسلام من جديد ويجدد النكاح إن كان صاحب زوجة.

فقى «الدر المختار» عن شرح الوهبانية للعلامة حسن الشرنبلالى ما يكون كفراً اتفاقاً يبطل العمل والنكاح وأولاده أولاد زنا وما فيه خلاف يؤمر بالاستغفار والتوبة وتجديد النكاح.

ويجب على وليد أن يلعب عن التوبة وتجديد النكاح كما نشر هذه الكلمات الشنيعة فإن رسول الله ﷺ قد قال «إذا عملت سيئة فأحدث عندها توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية» رواه الإمام أحمد فى كتاب الزهد والطبرانى فى المعجم الكبير عن معاذ بن جبل رضى الله عنه بسند حسن.

والله أعلم

القمع المبين لأمال المكذبين

١٣٢٩هـ

تأليف

مولانا الإمام أحمد رضا خان النفسي

١٢٧٢هـ . ١٣٤٠م

ترجمه إلى العربية

غلام محمد بن

قسم التفسير

كلية أصول الدين

جامعة الأزهر الشريف

القاهرة، مصر

إهداء

إلى روح الإمام الرياني المجاهد الزاهد،
الطبيب الروحاني والحكيم الرياني مير السيد
علي الهمداني، رحمه الله تعالى الذي هجر
الوطن والأهل لنيل نيل الإسلام، ونشر الأثر النبوي
والسلوك المحمدي صلى الله عليه وسلم في بلاد
الهند، ووقف حياته لإحياء القلوب بالإيمان والأخلاق ورغبة
في رضوان المولى عز وجل ورضوان رسوله الكريم صلى
الله عليه وسلم

فاحسن الله جزاءه وأجزل مثوبته، وأكرم نزله عنده

غلام محمد بي

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا وشفيعنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه إلى يوم الدين.
أما بعد، .

فما أسعد اللحظات في حياتي حين تعرفت على هذه الشخصية الموسوعية رفيعة المقام، أعنى مولانا الإمام الشيخ أحمد رضا خان القادري الحنفى، إمام الصوفية في الهند، الذى أخرج المئات من الكتب. وما أسعدنى حين أقدم هذه الشخصية الفذة وأفكاره مترجماً إلى العربية إلى سادة العرب الناطقين بالضاد بطريق مؤلف قيم له فى مجال العقيدة الصحيحة من عقائد الإسلام، وهو كتاب ممنوع يسمى «القمع المبين لآمال المكذبين» تصدى فيه المؤلف العلامة للرد على تأويلات خاطئة للذين يفترون على الله الكذب ويرون فى ظنهم الباطل أن الله يستطيع أن يكذب لكنه لا يكذب كما أن عنوان الكتاب يشير إلى مضمونه.

وكان المؤلف المفضل يحرص أشد الحرص على حفاظ العقيدة الإسلامية والشعائر الدينية والدفاع عن أهل السنة والجماعة، لذلك نراه تعرض لكل مسألة عقدية هامة التى أراد بها بعض الضلال التحريف أو التأويل أو التخصيص واستئصال الفتن التى انتشرت فى شبه القارة الهندية فى أيام حياته، كفتنة منكرى ختم النبوة وغير ذلك وكان أسلوبه فى إثبات الحق وإبطال الباطل وإقامة الحجة ودحض الشبهة رائع وكان له باع طويل فى العقيدة والكلام، وإبداع فى الاستدلال. ويملاً قلبى سروراً، وأنا أحمد الله تعالى على أنه وفقنى على هذا العمل الذى تم أثناء قيامى بمصر وأنا دارس بالأزهر الشريف إذ له فضل عظيم.

وصل اللهم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

غلام محمد بت

بسم الله الرحمن الرحيم

الفتوى:

استفسر محمد صادق على خان من محافظة «أكبر آباد» الهند، سنة ١٣٢٩ هـ
قائلاً:

ما هو رأى العلماء الكرام فى رجل يقول: «قلت الكذب نقص والنقص عليه
تعالى محال فلا يكون من الممكنات.. إلخ. قوله والنقص عليه.. إلخ. لا يخفى أنه
موقوف على كونه ممتنعاً بالذات، ولا نسلم ذلك إذ لو كان ممتنعاً لما وقع الكذب من
أحد فهو ممتنع بواسطة أنه مناف لكمالته تعالى فيكون ممتنعاً بالغير، والامتناع بالغير
لا ينافى الإمكان الذاتى».

(حاشية عبد الحكيم السبالكوتى)

بسم الله الرحمن الرحيم

الإجابة:

الحمد لله الواحد الواجب الصدق، المستحيل الكذب، المحال عليه بذاته كل نقص وشين، فمن تقول عليه بإمكان كذبه وتطرق إليه بخلف وعيده فقد استوجب لعنة الله عليه في الدارين ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ (١) ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (٢) «ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً» (٣) ﴿وَيَلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ (٤) «إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم» (٥)، «ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته أولئك معرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين» (٦).

«هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» (٧)، صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله وصحبه وبارك وكرم كلما ذكره الذاكرون، وكلما غفل عن ذكره الغافلون، والحمد لله رب العالمين.

نعوذ بالله عز وجل من غضبه، ثم نعوذ بحبيبه الأكرم الذي عمت رحمته العالمين جميعاً. إن من الأمثال السائرة في اللغة الأردنية «إذا أراد الله أن يتزعج إيمان قوم سلب عقولهم قبله لأن العقل السليم لا يقبل الباطل يعون الله الكريم، ولو أراد الشيطان في بعض الأحيان أن يخدعه سرعان ما يتنبه لخداعه ويشعر بمكائده

(١) سورة آل عمران: ٩٥.

(٢) النساء: ١٢٢.

(٣) الإسراء: ٧٢.

(٤) طه: ٦١.

(٥) النحل: ١١٦، ١١٧.

(٦) هود: ١٨.

(٧) التوبة: ٣٣.

كما أخبر الله عز وجل بذلك فى هذه الآية الكريمة «تذكروا فإذا هم مبصرون»^(١) أما إذا انعدم العقل (نعنى بالعقل هنا الوعى الدينى والشعور الإسلامى لا المهارات الفائقة فى أمور الدنيا والعلوم العصرية) صار الإنسان صورة حية ومصدقاً كاملاً لهذه الآية الكريمة «لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون»^(٢) وأصبح لعبة فى أيدي الشياطين وبذلك لا يبقى الإنسان إنساناً إلا صورة وشكلاً، أما فى الباطن فهو بمثابة الحمار الذى ضرب الله به مثلاً فى القرآن الكريم إذ يقول «كمثل الحمار يحمل أسفاراً»^(٣) «كأنهم حمر مستنفرة»^(٤) فمن كان مستصفاً بهذه الصفات الشنيعة وطالع كتاباً فلا شك أنه لا يطالعه إلا لإشباع أغراضه الفاسدة، وتحقيق مصالحه الشخصية مثله كمثل الخنزير والتنزه فى الحديقة، حيث تفوح رائحة الزهور وتفتح البراعم وتلاعب أيدي النسائم بأوراق الأشجار وترفرف الأرائك وتفوض الفوارات فيضاً وتصدح البلابل صدحاً وتغنى الطيور فى المتنزهة، أما الخنزير فلا شأن له فى المتعة والسرور بل همه ترقب النجاسة فيها ليبلعها. هذه هى حال الضال عندما يطالع الكتاب الذى يحتوى على آلاف من الأبحاث المفيدة والمنافع القيمة لا يلتفت إليها، بل بدأ يبحث عن موضع الخطأ فيه فإن عثر عليه تمسك به وإن كان الخطأ فى حد ذاته لا يخدم مصالحه فى الواقع. وبهذه الميزة قد فاق على الخنزير الذى من دأبه أكل النجاسة التى تصلح لأكله، أما المطالع لأغراض فاسدة فلا يميز بين ما يصلح لأهدافه من الخطأ وما لا يصلح لها.

انظر إلى هذا الجاهل كيف غفل عن حقيقة إيمانية واضحة بأن الأنبياء عليهم الصلوات والثناء هم المعصومون ولا يشاركونهم فى هذا الوصف أحد من البشر.

(١) الأعراف ٢٠١.

(٢) البقرة ١٧٠.

(٣) الجمعة ٥.

(٤) المدثر : ٥٠.

ومن الطبيعي حدوث أخطاء ووقوع زلات من غير معصوم، ومن هنا اشتهرت تلك الجملة الرائعة التى كانت تتردد على ألسنة السلف الصالحين وأئمة الدين الحنيف وأهل الحق مؤكدة لتلك الحقيقة البينة حيث قالوا: «كل مأخوذ من قوله ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر ﷺ» وبذلك كلما عثروا على أمر قد كان على خلاف ما كان عليه أهل الحق والجمهور تركوه على غارب صاحبه واعتقدوا ما كان عليه أهل السنة والجماعة؛ لأن الجماعة قد وردت فى فضلها آثار كثيرة ومنها «يد الله على الجماعة». «اتبعوا السواد الأعظم» ولم يبالوا أدنى مبالاة بالطرائف المنطقية واللطائف العقلية التى اخترعها مدمنوا المنطق والفلسفة وما صاروا وراءها خبط عشواء؛ لأن الاتباع بغير علم والتقليد بغير فهم هو دأب العمى الملاحين أو الشياطين المتمردين، يقول الله فيهم ﴿وَأِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (١) تتميز الفرق الضالة فى هذا الوصف بصفة عامة وتتميز الفرقة الديوبندية فى هذا الشأن بصفة خاصة وإنما حصلت لهم هذه الميزة وهذا الوسام عقابا لهم بما نسبوا الكذب إلى كلام الله تعالى. أما فرقة إسماعيل الدهلوى لها الأولوية والسبق فى نسبة الكذب إلى الله عز وجل حيث بدأ هذه المأساة العقيدية إسماعيل الدهلوى فى مكتوبه «يكروزي» وكذلك الديابنة هم منغمسون فى هذا المعتقد حيث زينوه وزخرفه مرشداهم «جنگوهى» فى كتابه «البراهين القاطعة» وما يبعث على الغرابة هو تقليد هذه الفرقة لجنگوهى عميانا حيث قد فاقت عمائمهم على خبط عمى القلوب جميعا ولو كانوا على شىء من البصيرة ما تبعوه عميانا، ليتهم عرفوا!

إن الكذب الذى يقول عنه المولوى السالكونى بأنه ممكن بالذات بل ويصفه بأنه واقع. هو الكذب المطلق أيا كان قائله سواء كان هذا الكذب من وحشى أو جبلى

(١) الأعراف ١٤٦.

أو دهلوى أو جنجوهى فلا بحث لنا فى إمكانه وحدوثه ولا شك فى إمكان هذا الكذب المطلق بل ولا ريب فى وقوعه بعدد الملايين.

انظر إلى عبارته حيث يقول: لو كان تمتنعاً لما وقع الكذب من أحد، وتوضيحه بهذا أن هذا الكذب المطلق لو كان فى حد ذاته كاجتماع النقيضين وارتفاع النقيضين لما استطاع أحد أن يكذب ولكن الناس يكذبون فقد ثبت بأن الكذب ليس بمحال فى حد ذاته، أما إذا نسبته إلى الله عز وجل فهو محال بلا ريب؛ لأن ذات الله تقتضى جميع الكمالات وتنافى جميع النقائص، فالكذب محال عليه بالذات. ولا شك أن هذه الاستحالة ناشئة من قبل ذات الله عز وجل التى تنافى كل عيب. أما الكذب المطلق الذى هو الكلى العام الشامل لكل كذب، وكذب كل شخص فباستحالة فرد منه قد عرض نوع من الاستحالة للمطلق الكلى، وذلك لأن حكم الفرد إنما هو من حيث طبيعته المطلقة. ولا تعتبر هذه الاستحالة ذاتية فى الكذب المطلق لأن هذه الاستحالة لم تنشأ من ذات المطلق وإنما هى ناشئة من الإسناد إلى ذات الله عز وجل، ومثله كاجتماع النقيضين سواء بسواء؛ لأن الاجتماع المطلق بين شيئين لا يستحيل فى حد ذاته إذ لو كان مستحيلاً فى حد ذاته، ما اجتمع شيان أبداً، أجل إن اجتماع النقيضين محال بالذات بلا ريب حيث إن ذات النقيضين تنافى مع الاجتماع. أما الاجتماع المطلق الذى يشمل الاجتماع بين شيئين بصفة عامة والذى قد أصبح محالاً فى هذه القضية المخصوصة، فهذه الاستحالة لا تعد ذاتية له بل هى ناشئة بخصوص ذات النقيضين، فمطلق الاجتماع الذى هو عبارة عن الحقيقة المطلقة لا شك ممكن بذاته، بل واقع فى ملايين من الأماكن لن يكون بسببه اجتماع النقيضين ممكناً، لأنه محال بالذات قطعاً، وكذلك المطلق الكذب الذى هو عبارة عن الطبيعة المرسله ممكن بالذات بلا ريب بل وموجود فى آلاف من الأماكن ولن يكون بسببه كذب الله تعالى ممكناً، والعياذ بالله، لأنه محال بالذات قطعاً.

وبهذا قد اتضح فحوى إيراد المولوى السيكالكونى وكذلك اتضح الجواب وضوحا
نما بأن الكلام هنا أراد فى الكذب الخاص لا فى طبيعة الكذب مطلقا، ولا يستلزم
بإمكان الكلى إمكان جميع أفرادها. لقد بدرت هنا من السيكالكونى هفوة عقلية بأنه لم
يفرق في محل النزاع أن النقاش إنما كان في إمكان الفرد هنا غير أن السيكالكونى قد
نظر إلى إمكان الطبيعة.

وأما الديابنة فقد تمردوا فى كفرهم واستدلوا به على إمكان كذب الله
تعالى (والعياذ بالله) وبذلك حاولوا بأن يرموا بكفرياتهم رأسه وينسبوا كفرهم
إليه. فليجب الديابنة على حذر حيث نتساءل هل عبارة السيكالكونى هذه ما فهمتم
منها هو حق عندكم أم باطل؟. وإن قلتم هو باطل فلماذا تحيدون عن الحق
متجاهلين وتضلون المسلمين الغافلين. وإن قلتم هو حق فقد عدتم بالكفر على
أنفسكم وأقررتم بضلالكم بالستكم، بل أصبحتم أضل من المشركين وقد عبدتم
معبودا من صنعكم وانحرفتم عن الله عز وجل. ولو أبيتم فيها نحن ثبت لكم
بالدلائل أن العبارة التى استدللتم بها على إمكان كذب الله. فإن نفس العبارة على
نفس المنهج تصلح للاستدلال على إثبات شريك الله وإمكانه، بأنه لو كان وجود
الشريك محالا لما كان أحد شريكا لآخر، فيكون شريك الله محالا، بأنه ينافى كماله
تعالى. معناه هو ممتنع بالغير والامتناع بالغير لا يتنافى مع إمكان ذاتي، وكذلك فى
ضوء هذا التقرير يمكن موته وفناءه بأن تقولوا: لو كان الموت محالا لما مات
أحد، فموت الله ينافى كماله وبذلك هو مستحيل بالغير، ومن هنا يكون موته
وفناءه ممكنا بالذات، فلم يبق واجب الوجود ومن لم يكن واجب الوجود لا يكون
الله بل يكون شيئا من صنعكم (ألا لعنة الله على الظالمين) (١).

وكان فى هذا القدر من الرد كفاية لشرح هذه العبارة ونفض الغبار عن وجهها
غير أن الفقير يود أن يوصل هذا النقاش إلى أعلى درجة من الكمال والإتمام بعون

(١) هود : ١٨ .

الله التقدير ويكشف وجه المكذبين كمثل (جنجوهي) و(الديابنة) فيما أرادوا من مخادعة المسلمين بعبارتى المسائره وشرح المواقف كما أشن عليه غارة روحانية فنقول (وبالله التوفيق): إن الاستناد بهذه العبارات من المسائره وشرح المواقف أضعف بكثير من الاستشهاد، غير أن المكذبين لله عز وجل إنما قصارى هدفهم وشغلهم الشاغل خداع الجماهير السذج من المسلمين وتحقيق مشابهنهم باليهود، نقول تحذيرا لهم ﴿وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون﴾^(١) فأقول وبالله التوفيق:

أيها المسلمون الكرام:- إنما العقائد تؤخذ وتلقى عن سيد المرسلين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وعن الصحابة وعن التابعين وعن السلف الصالحين رضوان الله عليهم أجمعين، وقد صنف المتون فى كتب العقائد لبيان هذه العقائد والمسلمون بصفاء طويتهم كانوا يؤمنون بها بغير تردد وتعليل يذكر، أما عندما كثر الضالون وبدءوا ينشرون عقائدهم الباطلة مستبدلين عليها نقلا وعقلا ليخدعوا الجماهير المسلمين السذج. فمن هنا شعر علماء أهل السنة والجماعة بالحاجة الملحة إلى الرد على أدلة الضالين الباطلة، وإقامة الدلائل الدامغة على عقائدهم الحق، ومن هنا وضع حجر الأساس لكلام المتأخرين وانفتحت بوابة الاستدلالات والنقاش والمناظرات على مصراعيها حتى شعر المتكلمون بالحاجة إلى الفحص والنقد فى دلائلهم وردودهم أيضا، وبما لا شك فيه بأن الناس تختلف أذهانهم ثم أفكارهم، والباحث لا يستبعد عنه الإصابة والخطأ فى بحثه واستنباطه وهى غريزة لا تنفك عنه، قد يقيم أحد الباحثين دليلا على صحة مذهبه أو يرد على وجه إليه ويأتى الآخر ناقدا على هذا الدليل ويقول أن هذا الدليل غير قوى لإثبات المدعى، فإن للخصم أن يرد فيه بكذا. وأثر هذا النقاش لا يتجاوز دليله والرد عليه وذلك إذا كان صحيحا فضلا عن أن يكون قصور فى هذا الدليل والرد عليه، كما

(١) الشعراء: ٢٢٧.

يعترف به الباحث نفسه، أو ربما اخطأ الباحث في النظر والتأمل مع أن الدليل والرد عليه كانا سالمين، ولا يعنى هذا بأن المذهب المحقق هو باطل أو ضلالة الخصم حق (معاذ الله) والمعروف عند كل من له أدنى مسكة من العقل بأن القضية الأصلية لا يمكن إبطالها بإفساد دليل قام به أحد على هذه القضية أو بإفساد رد شخص على دليل هذه القضية وبالتالي لا يتغير هذا الباحث عقيدته خارجا عن مذهب أهل السنة والجماعة ظنا منه بأنه باطل. هذا الأمر معتاد عند جميع أهل السنة وغيرهم، مع كل ذلك أن فى الأزمنة القربية بخير القرون كان الاعتدال والوسطية فى هذا النقاش والجدل قائمين أما إذا وقع فن الكلام فى أيدي فلاسفة المتأخرين فاشتد الجدل فى كل قضية بوجه أو بغير وجه وما كان الغرض وراء هذا إلا إبداع الذكاء فى النفي والإثبات والدفع والجذب والمنع والنقد وكان يطمع صاحب الجدل أن يبرز مؤهلاته العقلية فحسب، وما كان غرضه الرجوع عن مذهبه وإبطال عقائده ألبتة حاشا لله ثم حاشا لله ألف مرة. ومن المعروف عند أصحاب العدل أن ما صنف الشارحون والمحشيون من المتأخرين لم يكونوا يعتقدون به بأنفسهم فضلا عن أن يكون ذلك ممثلا عن عقيدة أهل السنة والجماعة، إنما العقائد ما وضعت فى المتون والمسائل دون الشروح والخواشى الفرعية، أما ما كتبوا فى الخواشى إن كان يوافق المتن فهو حق وإن كان يجافيه فإنما هو باب المناقشات الذهنية والرياضات العقلية والمنافسات القلمية، وقد اعترفوا بذلك بلفظ صريح بأنفسهم، يقولون بأنهم لا يراعون فيها قواعد أهل السنة والجماعة ويفوضون الأمر إلى معرفة القارى، حيث إنه يعرف عقائد الحق فيراعيها بنفسه هذا إذ دعت الضرورة إليها. ففى المواقف أنت تعرف مذاهب أهل الحق فإنما لا نتعرض لأشاله للاعتماد على معرفتك بها فى مواضعها وفى شرحه فعليك مراعاة قواعد أهل الحق فى جميع المباحث وإن لم نفرح بها وفى شرح المقاصد كثيرا ما تورد الآراء الباطلة للفلاسفة من غير تعرض لبيان البطلان إلا فيما يحتاج إلى زيادة بيان.

وجاء مثل ذلك فى حاشية (حسن جلى على السيد) أن عقائد المحققين المتكلمين هى ما اثبتوها فى المتون وصرخوا بها مرارا وتكرارا فى مختلف الأوان دون ما تطرقوا إلى ذبول عفوية.

أما الكلاميون الذين أصطبغوا بصبغة الفلسفة على وجه الخصوص وخاضوا فى الجدل وبالغوا فيه ولم يميزوا بين الأغوار والأنجاد ولا الجبال والوديان ولا بين ما يجوز فيه البحث وما لا يجوز، وقد تجدهم يتفوهون فى المناقشات بما يلزمنا أن نعوذ بالله العظيم منه. ففى شرح الفقه الأكبر يقول الإمام الشافعى رحمة الله عليه لقد اطلعت من أهل الكلام على شىء فما ظننت مسلما يقوله أن هؤلاء المحققين قد اطمئنوا إلى أن البحث ليس مهيمنا على المذاهب، وعقائدنا معروفة ومعلومة وما يرد فى الجدل خلافها فأن القارئ يدركها بنفسه، وقد نبه على ذلك كثير من أكابرهم غير أن المضل المغوى فلا دواء له حيث أن شغلهم الشاغل تتبع مثل هذه الفرص لكى يشوش على الناس عقائدهم، فيقع العامى فى التردد لأنه لا معرفة له بقواعد أهل الحق ليراعيها. هذه الأمور التى جعلت هذا النوع من كلام المتأخرين مهانا ومحتقرا عند أئمة الدين حتى قال الإمام أبو يوسف رحمة الله عليه (من طلب العلم بالكلام تزندق) وقال الفقهاء الكرام لاحظ للمتكلمين من المال إذا أوصى به للعلماء ولا تعد كتب الكلام من كتب العلم فقد نقل فى الفتاوى الهندية عن المحيط: لا يدخل فى هذه الوصية المتكلمون. وفيه كذلك عن الإمام أبى القاسم الصفا رحمة الله تعالى عليه كتب الكلام ليست كتب العلم.

ونقل فى منح الروض الأزهر عن الفتوى الظهيرية أوصى لعلماء بلده لا يدخل المتكلمون ولو أوصى أن يوقف من كتبه كتب العلم أفتى السلف أنه يباع ما فيها من كتب الكلام وفى الطريقة المحمدية عن التاتارخانية عن الإمام الحافظ أبى الليث السمرقندى: من اشتغل بالكلام محى اسمه من العلماء. وفى الحديقة الندية فلا يقال له عالم. ونظائر هذا فى نظر الفقير كثيرة ووافرة.

وفى هذه العجالة السريعة نعرض بعض الأمثلة من هذه الكتب الثلاثة المذكورة التى تمسك بأبحاثها الزائدة والفروع العفوية مكذبو الله عز وجل الذين تركوا القرآن الكريم والنصوص الصريحة التى زينت بها متون كتب العقائد وراء ظهورهم، وبذلك لم يبالوا بإجماع السلف والخلف، فأنهم قد تمسكوا بعبارة المسائرة وشرح المواقف، وهى بضاعة الديابنة وجل اعتمادهم عليهما، والعبارة الثالثة من حاشية السيالكوتى التى مرت بك فى السؤال وما بعدها، فلا شىء فى أيدى هؤلاء المكذبين فهم صفر اليد (ولله الحمد) وبعد كل هذه لم تنبى لديهم إلا وسوسة إبليس المردودة، وتنطبق على هؤلاء هذه الآية ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ (١).

المثال الأول:- يقول المولوى عبد الحكيم السيالكوتى ناقلا عن منهيّة الخيالى أن تعلق علم الله عز وجل بالأمر غير المتناهية مفصلا ممنوع، لقد نقل الملا المذكور هذا الوهم الفاسد عن (منهيّة الخيالى) وصدقه حيث قال قوله فتأمل، نقل عنه وجه التأمل أن علمه تعالى الشامل إنما يشتمل ما لا يمتنع العلم به كما أن قدرته الشاملة إنما تشتمل ما لا يمتنع وجوده وإمكان تعلق العلم بالمراتب الغير المتناهية مفصلة ممنوع، انتهى.

فإن قيل يلزم الجهل على الله تعالى، قلت الجهل عدم العلم بما يصح تعلق العلم به كما أن العجز عدم تعلق القدرة بما يصح أن تعلق به فتأمل. إلخ.. إنه قال: إن علمه.. ممنوع، ولو أنه أمعن النظر فى هذا القول الذى هو بمثابة الوسوسة الباطلة من عدو مبين أعادنا الله تعالى من شره وما فى طياته من الآفات القاهرة لما لوت لسانه بهذا القول فأقول أولاً، يتسائلا لكلا المولوين أن يجيب لي إلى أى قدر من سلسلة العداء قد وقف علمه فى علم الله عز وجل، بحيث لا يعرف العدد القادم من هذا الحد؟ وكم من أيام الآخرة يعلمها الله ولا يعلم بعدها؟ وكم كمية

(١) المرسلات : ٣٧.

من نعيم الجنان وعذاب النيران في علم الله ولا يعرف زيادته؟ هل يمكن أن تصدر مثل هذه الأقوال من مسلم عاقل؛ حاشا وكلا طبعاً، لا. فانظروا كيف صرح الإمام الشافعي رضي الله عنه بهذا، وقد صدق ما قال: فما ظننت مسلماً يقول غير أنه رضي الله عنه قال: اطلعت على شيء، ونحن نقول وقد اطلعنا على أشياء، إذ فسد الزمان وإلى الله المشتكى وعليه التكلان.

ثانياً:- وليحدد في هذه السلسلة من الأعداد حداً يفرق بين سابقهما ولأحقهما، وليبين السبب لماذا حصل العلم إلى هذا الحد ولم يحصل إلى ما وراءه؟. واعلم أن الوجود الخارجي لا يشترط في العلم، وإلا لزم الجهل عن الغد بله الآخرة، والعياذ بالله، بل لزم الجهل المطلق عن كل ما سواء الأزل، وبالتالي يستحيل الخلق، ومهما يكن من أمر فإن الوجود لا يشترط في العلم فيتعلق العلم بالمعدوم، ولا فرق بين معدوم ومعدوم، فوقف العلم عند حد معين ترجيح بلا مرجح، وهذا بخلاف علوم العالم حيث إن المرجح الإرادة الإلهية أعطى ما شاء من شاء ﴿ لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ (١).

ثالثاً: أى حد إذا قررته، مثلاً إذا تحدد الأيام والإيلام والإنعامات لا بد التجاوز من الحد، لأنها لا تقف عند حد. أما الأيام والإيلام والإنعامات التي تأتي بعد هذا الحد يعلمها الله أم لا؟. لو قلت لا، فيلزم الجهل، والعذر الذي اعتذرت به زاهق ومردود، لأنه قد أصبح معلوماً للعباد الآن، مع هذا من يخلقهم؟، هو الخبير والشهيد فلا معنى لعدم العلم ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ (٢)، وإن أجبت في الإثبات، بأن علمه لم يكن من قبل فعله حادث إذا، هل تظن أن أهل السنة يعتقدون بهذا؟. بل يعتقدون بما قال الله عز وجل ﴿وكان الله بكل شيء عليماً﴾ (٣) والعقيدة هي ما كتب السالكونى بنفسه، في شرح العقائد الجلالى

(١) البقرة: ٢٢٥.

(٢) الملك: ١٤.

(٣) الفتح: ٢٦.

المعلومات فى أنفسها غير متناهية لشمولها الموجودات والمعدومات. وفى الشرح اعلم أن المتكلمين ينفون الوجود الذهنى ويثبتون علم الله تعالى بالحوادث الغير متناهية، بل تجد فى حاشية السيالكوتى على الخيالى نفسه يقول: هذه التعلقات قديمة غير متناهية بالفعل ضرورة عدم تناهى متعلقاتها، أعنى جميع ما يمكن أن يعلم من الأمور الكلية والجزئية الأزلية والمتجددة لشموله الممكن والممتنع والواجب.

والعقيدة هى ما قال فى المقاصد وشرحه علمه تعالى لا يتناهى ومحيط بما لا يتناهى كالأعداد والأشكال ونعيم الجنان وشامل لجميع الموجودات والمعدومات الممكنة وجميع الكليات والجزئيات سمعا وعقلا.

العقيلة ما صرح بها فى المواقف وشرحه: علمه تعالى يعم المفهومات كلها الممكنة والواجبة والممتنعة، والمخالف فى هذا الفصل فرق، الأولى من قال لا يعلم نفسه إلى أن قال الرابعة من قال لا يعقل. غير المتناهى.

العقيلة ما صرح بها فى الحديقة الندية قائلا: المعلومات موجودة أو معدومة محالة أو ممكنة قديمة أو حادثة متناهية أو غير متناهية جزئية أو كلية، وبالجمله جميع ما يمكن أن يتعلق به العلم فهو معلوم لله تعالى.

والعقيدة هى ما بينته أنا الفقير إلى رب القدير فى (الدولة المكية بالمادة الغيبية)^(١) الذى زينته علماء الحرمين الطيبين بتصديقاتهم الجليلة، قلت فيه: أن رينا تبارك وتعالى يعلم ذاته الكريمة وصفاته الغير المتناهية والحوادث التى وجدت والتى توجد غير متناهية إلى أبد الآباد، والممكنات التى لم توجد ولن توجد بل

(١) كتاب قيم للمؤلف العلامة كته باللغة العربية أثناء قيامه فى الحرمين الشريفين، وقد صرح فيه أن علم الله تعالى ذاتي ولا متناهي وليس له الفناء غير علم المصطفى ﷺ إنما من إعطاء الله تعالى ومتناهي، ويقرأ عليه الفناء والحدوث، ولقد حظى هذا الكتاب القبول العام من قبل علماء العرب والعجم، بل وقد قدم له كبار الشخصيات من علماء العرب ويصل عدد التعريفات عليه إلى تسع وخمسين وقد طبع هذا الكتاب منقحاً ومحققاً حالياً من باكستان (غلام محمد بت).

والمحالات بأسرها فليس شىء من المفاهيم خارجا عن علمه سبحانه وتعالى يعلمها جميعا تفصيلا تاما أزلا أبدا وذاته سبحانه وتعالى غير متناهية، وصفاته غير متناهية، وكل صفة منها غير متناهية، وسلاسل الأعداد غير متناهية، وكذا أيام الأبد وساعاته وأناته وكل نعيم الجنة وكل عذاب من عقوبات جهنم وأنفاس أهل الجنة والنار ولمحاتهم وحركاتهم وغير ذلك كلها غير متناه، والكل معلوم لله تعالى أزلا وأبدا بإحاطة تامة تفصيلية، ففي علمه سبحانه وتعالى سلاسل غير المتناهيات بمرات غير متناهية، بل له سبحانه وتعالى فى كل ذرة علوم لا تتناهى، لأن لكل ذرة مع كل ذرة كانت أو تكون أو يمكن أن تكون نسبة بالقرب والبعد، والجهة مختلفة فى الأزمنة باختلاف الأمكنة الواقعة والممكنة من أول يوم إلى ما لا آخر له، والكل معلوم له سبحانه وتعالى بالفعل، فعلمه عز جلاله غير متناه فى غير متناه فى غير متناه، كأنه مكعب غير المتناهى على اصطلاح الحساب وهذا جميعا واضح عند من له من الإسلام نصيب.

والعقيدة ما نقلته فى تعليقاتى المسمى بـ (الفيوض الملكية على الدولة المكية) حيث كتبت على قولى: (بل له سبحانه فى كل ذرة علوم لا تتناهى) الحمد لله هذا الذى كتبه من عندى إيمانا برى ثم رأيت التصريح به فى التفسير الكبير إذ يقول تحت الآية الكريمة وكذلك نرى إبراهيم^(١)، سمعت الشيخ الإمام الوالد عمر ضياء الدين رحمة الله تعالى، قال سمعت الشيخ أبا القاسم الأنصارى يقول سمعت إمام الحرمين يقول: معلومات الله تعالى غير متناهية ومعلوماته فى كل واحد من تلك المعامات أيضا غير متناهية، وذلك لأن الجوهر الفرد يمكن وقوعه فى انحياز، لا نهاية لها على البدل ويمكن اتصافه بصفات لا نهاية لها على البدل الخ..

المثال الثانى:- أن العقيدة الأصلية فى المسألة هى ما يعتقد بها أئمة أهل السنة والجماعة. أن الخالق الحقيقى لكل شىء هو الله لا غيره، والأفعال الاختيارية للعباد

(١) الأنعام : ٧٥.

كذلك بتمامها وكمالها مخلوقة لله تعالى، أما العبد فهو كاسب لها، ووضح هذا بالدلائل العقلية والنقلية حيث قال: الأصل الأول العلم بأنه تعالى لا خالق سواه فهو سبحانه الخالق لكل حادث جوهر أو عرض كحركة كل شعرة وكل قدرة وفعل اضطراري كحركة المرتعش والنبض، أو اختياري كأفعال الحيوانات المقصود لهم أصله من النقل قوله تعالى ﴿اللّٰهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(١) وقوله تعالى ﴿والله خلقكم وما تعلمون﴾^(٢) ومن العقل أن قدرته تعالى صالحة لكل لا قصور لها عن شيء منه فوجب إضافتها إليه بالخالق. مختصرا.

ولما كتب أهل الكلام المتأخرون كلاما في البحث والنقاش على طريقة الجدل في القضاء والقدر، مع أنه كان مسلما لما خاض في هذا البحر العميق أي مسألة القدر، ليكشف عن السر الإلهي الذي منع رسول الله صلى الله عليه وسلم الصديق وعمر الفاروق رضى الله عنهما عن الخوض فيه، ونتج عن هذا الخوض ما كان منه مرجوا بحيث كان صاحبه اللؤلؤة ولكن وقعت يدها على الخزف الذي لا يسمن ولا يغنى من جوع، فقالوا ما خلاصته: أننا نخصص العزم عن النصوص العامة ثم عرضوا شبهات المعتزلة في هذا الباب، وقال لقائل أن يقول:

فلنفي الجبر المحض وتصحيح وجب التخصيص التكليف وجب التخصيص، وهو لا يتوقف على نسبة جميع أفعال العباد إليهم بالإيجاد لأي كما فعلت المعتزلة، بل يكفي أن يقال جميع ما يتوقف عليه أفعال الجوارح من الحركات وكذا التروك التي هي أفعال النفس من الميل والداعية والاختيار يخلق الله تعالى لا تأثير لقدرة العبد فيه، وإنما محل قدرته عزمه عقيب خلق الله تعالى، هذه الأمور في باطنه عزمها مصمما بلا تردد توجيهه توجيهها صادقا للفعل طالبا إياه، فإذا أوجد العبد ذلك العزم خلق الله له الفعل فيكون منسوباً إليه تعالى من حيث هو حركة وإلى العبد

(١) الزمر : ٦٢ .

(٢) الصافات : ٩٦ .

ذلك من حيث هو زنا ونحوه إلى أن قال: وكفى فى التخصيص لتصحيح التكليف هذا الأمر الواحد، أعنى العزم المصمم وما سواه مما لا يحصى من الأفعال الجزئية والتروك كلها مخلوقة لله تعالى متأثرة عن قدرته ابتداء بلا واسطة القدرة الحادثة المتأثرة عن قدرته تعالى والله سبحانه وتعالى اعلم. ولا يتخدد من قلت عنده مؤهلات الفهم ببيان صاحب المسألة بأنه مذهب الأحناف حاشاهم. بل مذهبهم هو الذى صرح به إمامهم أئمة الأنام سيدنا الإمام الأعظم رضى الله عنه فى (الفقه الأكبر) وفى وصاياه الشريفة: أن أفعال العباد جميعا على الإطلاق برمتها بغير تخصيص وبغير استثناء مخلوق لله تعالى.

وعبارة المسألة تعترف بنفسها بأن هذا النقاش بما جاد به الطبع وليس مذهباً منقولاً وفى الحقيقة لا يعتقد به صاحب المسألة بنفسه، ليس البحث عقيدة لأن العقيدة لا يقلل بهذا الأسلوب بأن لقائل أن يقول. أن عقيدته هى التى بينها هنا فى أصل المسألة، وكتبه فى آخر الكتاب فى قائمة عقائد أهل السنة والجماعة، وسنذكر هذه العبارات قريباً إن شاء الله فى الصفحات الآتية، أما هنا فأورد أن أبين هذا البحث مهملاً لا طائل تحته، أما ما تمس به الحاجة إلى هذا البحث فستجده فى رسالة لعبد فقير تسمى (تلج الصدر للأيمان بالقدر) وهذه الرسالة طبعت فى مجلة شهرية (التحفة الحنفية) فأنها كافية وشافية وبينت عدم جدوى هذا البحث فى تعليق المسألة واليك ما هنا لك: قوله فإذا أوجد العبد ذلك العزم، أقول: معاذ الله أن نقول بأن العبد يخلق شيئاً واحداً ولا عشر عشر معشار شيء (ألا له الخلق والأمر تبرك الله رب العلمين) (أفمن يخلق كمن لا يخلق) (ما كان لهم الخيرة) (هل من خالق غير الله) وكون هذا قليلاً بالنسبة إلى مقدورات الله تعالى لا يجدى نفعا فإنه كثير فى نفسه جداً فإن الإنسان لا يحصى ماله من العز مات فى يوم واحد فكيف فى عمره فكيف عزائم الأولين والآخرين من الإنس والجن والملك وغيرهم، فتخرج هذه الكثرة التى تفنى دون عد بعضها الأعمار عن مخلوقات

العزیز الغفار بلا واسطة، وتدخل فی مخلوقات العبد فیکون جواب ﴿هل من خالق غیر الله﴾^(١) بالإيجاب، والعیاذ بالله أى بلى هناك ألوف مؤلفة خالقون غیر الله ولم تثبت المعتزلة أكثر من هذا إذ شنع علیهم أئمتنا من مشایخ ما وراء النهر و غیرهم رحمهم الله تعالى قائلین إنهم أقبح من المجوس حیث إن المجوس لم یقولوا إلا بخالقین اثنين فما أثبتوا إلا شریکا وحدا، والمعتزلة أثبتوا شركاء لا محصى، وذلك أنها إنما قالت بخلق العبد فعله الاختیارى وكل فعل اختیاری لا بد له من عزم، فعدد العزمات والأفعال سواء، بل ربما تكون العزمات أكثر إذ قد یعزم العبد على فعل ثم یصرف عنه فلا یقع. قال سیدنا على کرم الله تعالى وجهه: عرفت ربى بفسخ العزائم، فإن كانت العزمات یشم لها اسما واحداً وهو العزم، فکذلك الأفعال یتنظمها اسم واحد وهو الفعل. فلا طائل تحت ما قدم الشارح ویأتى آنفا للمصنف أنه یکفى إسناد جزئى واحد إلى العبد وهو العزم، بل لو فرضنا أنه واحد بالشخص فالله تعالى متعال عن أن یشارکه أحد فی خلق شیء ولو جزئیا واحداً، أما اعتذار المصنف بأن البراهین أى الآیات الناصة باختصاص الخلق به تعالى عمومیات تحتل التخصیص، وقد أوجب العقل إذ إرادة العموم فیها تستلزم الجبر المحض المستلزم لضیاع التکلیف وبطلان الأمر والنهی وتعلق القدرة بلا تأثیر أى كما تقوله الأشاعرة لا یدفعه، لأن موجب الجبر لیس سوى أن لا تأثیر لقدرة العبد فی ایجاد فعل إلخ.. ملخصاً، فاعترضه القارى فی (منح الروض) بأن ذلك العزم المصمم داخل تحت الحکم المعمم إلخ.. أقول هذا من اعجب ما تسمع من الرد. فابن الهمام متى أنکر دخوله تحت العام، ولو أنکره فما كان یحوجه إلى التخصیص، بل النظر فیه بما ستسمع بتوفیق الله تعالى.

فأقول: أولاً بل الآیات عمومات لا تحتل التخصیص أئمة السنة على إجرائها على ستنها وأن الخلق مختص بالله تعالى لا حظ فیه للعبد فماذا ینفع كون اللفظ

(١) آل عمران: ٩٥.

فى ذاته محتملا للخصوص مع الإجماع على أن لا خصوص، ومن كان فى ربب
مما قلنا فليتنا بنقل من الصحابة أو التابعين أو من بعدهم من أئمة السنة المتقدمين
قبل حدوث هؤلاء المتأخرين يكون فيه أن للعبد أيضا قسطا من الخلق والإيجاد لن
يأتى به حتى بوب القارطان ويمكن التكليف بإرجاع ما للقارئ إلى هذا أى
الإجماع قائم على عدم التخصيص فذلك العزم أيضا غير مخرج من الحكم، وثانيا
لا حاجة بنا إلى تخصيص النصوص وإثبات منصب إفاضة الوجود لمن لا وجود له
فى حد ذاته بل تندفع الحاجة على وزن ما تزعمون اندفاعها هاهنا بإثبات تأثير
القدرة الحادثة فى شىء دون الوجود كما هو مذهب الإمام أبى بكر ألباقلانى أن
للإنسان قدرة مؤثرة لكن لا فى الوجود بل فى حال زائدة على الوجود، وقد
ارتضاه جمع من المحققين ذاهبين إلى أن تأثيرها فى القصد، والقصد حال لا
موجود ولا معدوم أى هو من الأمور الاعتبارية التى وجودها بمناشيها والخلاف فى
الحال لفظى كما فى (الفصول البدائع) وغيرها فليس إفاضة خلقا فإنه إفاضة
الوجود بل هو أحداث، والأحداث أهون من الخلق كما فى (المسلم والقواتح)
وعليه تدور كلمات الإمام المحقق صدر الشريعة فى التوضيح، والعلامة الشمس
القمي فى (الفصول البدائع) وتبعه العلامة قاسم تلميذ المحقق ابن الهمام فى
تعليقاته على المسيرة وغيرهم رحمهم الله تعالى وهم مع تنوع منازعهم يرجعون
إلى ذلك الحرف الواحد ولم أر أحد منهم يرضى بتخصيص العموميات اللهم إلا
ما حكى عن الإمام أبى المعالى على الاضطراب فيه، فتارة يثبت وتارة ينفيه كما فى
اليواقيت عن الشيخ أبى الطاهر القزوينى، بل الكلام فى ثبوته عنه كما سيأتى،
والمنقول عن الحنفية فى كتب المتأخرين هو هذا القدر أعنى أن للقدرة الحادثة أثرا
فى القصد أما أنه خلق وإيجاد، والنصوص مخصصة، فكل لا يوجد هذا إلا
للمحقق، وقد قال الأمام صدر الشريعة فى التوضيح بعد ما استفراغ وسعه فى
التوضيح والتنقيح فالحاصل أن مشايخنا رحمهم الله تعالى ينفون عن قدرة

الإيجاد والتكوين فلا خالق ولا مكون إلا الله تعالى لكن يقولون أن للعبد قدرة ما على وجه لا يلزم منه وجود أمر حقيقى لم يكن بل إنما يختلف بقدرته النسب والإضافات فقط كتعيين أحد المتساويين وترجيحه. اهـ. فهذا النص صريح في أن مذهب الـة على خلاف ما بحث المحقق. ولولا نسجه الكلام على منوال الالتزام لقلت أنه أبداه نقضا على القدرية اللثام بأنه لو سلم أن الحاجة إلى تصحيح التكليف والجزاء، تؤدي إلى ذلك ولا بد فهي تندفع بشيء واحد وهو القصد، فلم قلتم في جميع الأفعال بخالفة العبد ولعمري هذا قاطع لهم لا يمكنهم خروج عنه، هذا وقال الإمام محمد السنوسي رحمه الله تعالى في (شرح أم البراهين) مقدمته في التوحيد، وبالجملة فليعلم أن الكائنات كلها يستحيل منها الاختراع لأثر ما، بل جميعها مخلوق لمولانا جل وعز، ومفتقر إليه أشد الافتقار ابتداء ودواما بلا واسطة فبهذا شهد البرهان العقلى ودل عليه الكتاب والسنة وبإجماع السلف الصالح قبل ظهور البدع. ولا تصغ بأذنيك لما ينقله بعض من أولع بنقل الفت والسمين على مذهب بعض أهل السنة مما يخالف ما ذكرناه لك فشد يدك على ما ذكرناه فهو الحق الذى لا شك فيه، لا يصح غيره واقطع تشوئك إلى سماع الباطل تعش سعيدا. وتمت إن شاء الله تعالى طيبا رشيدا والله المستعان. قال محشيه الفاضل محمد الدسوقي أشار بهذا إلى الثلاثة أقوال نقلت عن أهل السنة قول القاضى بتأثير قدرة العبد فى حال الفعل. وقول الأستاذ الاسفرائنى تؤثر فى اعتبار لأن الأستاذ يقول بالأحوال، وقول إمام الحرمين فى ذات الفعل على وفق مشيئة الرب، وهذه الأقوال غير صحيحة لمخالفتها لإجماع السلف الصالح، فإن قلت كيف يصح من هؤلاء الأئمة مخالفة الإجماع؟، قلت قال فى شرح الكبرى لا يصح نسبتها لهم، بل هى مكذوبة عنهم، ولئن صحت فأئما قالوا فى مناظرة مع المعتزلة جر إليها الجدل. ملخصا، أقول أما مخالفة ما نقل عن أبى المعالى للإجماع فظاهر وقد صح عنه خلافه كما ستسمع، أما قول إمام أهل السنة الباقلانى والأستاذ

الإمام أبى إسحاق على ما نقل هنا فليس فيه رائحة خلاف ما استقر عليه الإجماع والاتفاق لما علمت أنه ليس فى شىء من الإيجاد والتكوين على الإطلاق، وقال العلامة فى شرح المقاصد المشهور فيما بين القوم والمذكور فى كتبهم أن مذهب أمام الحرمين أن فعل العبد واقع بقدرته وإرادته كما هو رأى الحكماء، وهذا خلاف ما صرح به الإمام فيما وقع إلينا من كتبه قال فى الإرشاد اتفق أئمة السلف قبل ظهور البدع والأهواء على أن هو الله ولا خالق الخالق سواء وأن الحوادث كلها حدثت بقدره الله تعالى من غير فرق بين ما يتعلق قدرة العباد به وبين ما لا يتعلق، فإن تعلق الصفة بشىء لا يستلزم تأثيرها فيه كالعلم بالمعلوم والإرادة^(١)

(١) أقول إرادة فعل الغير وإن لم تكن من الإرادة المبحوث عنها أعني صفة من شأنها تخصيص أحد المقدورين، كما لا يخفى بل بمعنى المحبة والهوى لكنه يريد الاستيضاح بصفات أخر ألا ترى أنه ذكر العلم ثم التقييد لفعل الغير ليكون أوضح وأظهر وإلا فإرادة فعل نفسه أيضاً غير مؤثرة فى الفعل وإنما شأنها تخصيص والتأثير شأن القدرة كما نص عليه فى المسامرة غير أنه يتجه لهم الجواب بأن الكلام فى القدرة، وليس من شأنها إلا التأثير عند تعلق الإرادة أما العلم والإرادة فبمعزل عن التأثير وكأنه لهذا أعدل عنه الإمام حجة الإسلام فى «قواعد العقائد» فاستند بنفس القدرة إذ يقول وليس من ضرورة تعلق القدرة بالمقدور أن يكون بالاختراع فقط إذ قدرة الله تعالى متعلقة فى الأزل بالعالم، ولم يحصل الاختراع بها إذ ذلك وعند الاختراع تتعلق به نوعاً آخر من من التعلق فبطل أن القدرة تختص بإيجاد المقدور. اهـ، وأنت تعلم أن القدرة إنما تؤثر على وفق الإرادة وإنما تعلق الإرادة فى الأزل أن توجد الكائنات فى أوقاتها المخصوصة فيما لا يزال فلا نسلم أن القدرة تعلقت مع العراء عن الاختراع بل أثرت واختبرت على وفق الإرادة أما ههنا فتعلق بلا تأثير أصلاً فلم تكن إلا اسماً بلا مسمى ولفظاً بلا معنى وهذا حاصل ما ناقشه به فى المسامرة أقول ولا أرى هذه العقدة تنفك إلا بأحد أمرين الأول ليست القدرة ما تؤثر حتماً ولو مع الإرادة ولا محيد عنه للمعزلة أيضاً، ألا ترى أن الكفرة بذلوا جهدهم فى إيذاء النبي ﷺ وهموا بما لم يتألموا ورد الله الذين كفروا بغيظهم، فإنما القدرة صفة من شأنها التأثير وتؤثر مع الإرادة لولا مانع وقد قال فى المسامرة شرح المسامرة: اعلم أن الأشعرية لا ينفون عن القدرة الحادثة إلا التأثير بالفعل لا بالقوة لأن القدرة الحادثة عندهم صفة شأنها التأثير والإيجاد لكن تخلف أثرها فى أفعال العباد لما منع هو تعلق قدرة الله بإيجادها كما حقق فى شرح المقاصد وغيره اهـ. قلت وصرح به الأمدى ثم رأيت فى شرح المقاصد من بحث القدرة الحادثة من مقصد الأعراض نسبة له ولم يأت بتحقيق يزيد على ما مر. أقول وفيه حزااة والقلب لا يطمئن به ولا يسكن إليه وإلا لكان كل إنسان بل كل حيوان ولو أخس ما يكون وأضعفه قادراً على الخلق والإيجاد وإن لم يتفق له ذلك لعروض مانع وهو سبقة الخلق الإلهي، وماذا تفعل الأشاعرة الأقدمون بدليلهم أن لو قدر العبد على فعله لقدرة على خلق =

بفعل الغير فالقدرة الحادثة لا تؤثر في مقدورها أصلا واتفقت المعتزلة ومن تابعهم من أهل الزيغ على أن العباد موجدون لأفعالهم مخترعون لها بقدرتهم ثم المتقدمون منهم كانوا يمتنعون من تسمية العبد خالقا لقرب عهدهم بإجماع السلف على أنه لا خالق إلا الله تعالى، واجترأ المتأخرون فسموا العبد خالقا على الحقيقة. هذا كلامه ثم أورد أدلة الأصحاب وأجاب عن شبهة المعتزلة وبالغ في الرد عليهم وعلى الجبرية وأثبت للعبد كسبا وقدرة مقارنة للفعل غير مؤثرة فيه. فهذا أصرح نص على أن معتقده رحمه الله تعالى هو معتقد أهل السنة سواء بسواء فلم يبق أحد تسايره المسايمة. أقول ولكن العجب كل العجب من العلامة بحر العلوم اللكنوى عفا الله تعالى عنا وعنه جنح في الفواتح إلى ما يلي في المسايمة مع تصريحه فيها قبله بأسطر بما نصه (وما فهموا) أي المعتزلة بل هؤلاء الجهلة أيضا (أن الإمكان ليس من شأنه إفاضة الوجود) فإن من هو في نفسه باطل الذات محتاج في الواقعية إلى الغير، وكل^(١) على مولاه كيف يقدر على إيجاد الأفعال من غير اختلال بالنظام الأجود، وهذا ظاهر لمن له أقل حدس من أصحاب العناية الإلهي^(٢) (لكن من يجعل الله له نورا فما له من نور)^(٣) وعند

=الأجسام والجواهر إذ لا مصحح سوى الحدوث والإمكان وهما مشتركان افتراهم قائلين إن كل إنسان وحيوان حتى الخناس والديدان يقدر على خلق السموات والأرض وإن لم يقع لهم لسببه خلق الله تعالى وقد نص الأشعرية أن ليس للعبد من الفعل إلا المحلية فتدبر وانصف، والثاني أن الحادثة تحدث ولا تخلق وكفى به تأثيرا وهذا هو الذي حمل الحنفية والقاضي الأستاذ وجما من المحققين على القول بأن للمحادثة تأثيرا فيما دون الوجود، والحق أن العقل لا يستقل بإدراك تلك الحقائق فنؤمن بما أتى به القرآن وشهدت به الضرورة، وأدى إليه البرهان أن الفرق بين الإنسان والحجر، وبين حركتي البطش والارتعاش والصعود والهبوط والوثبة والسقوط بديهي، وأن ليس للإنسان إلا ما سمي [النجم: ٣٩] وأن لا خالق لشيء إلا العلي الأعلى وأن لا مشيئة للإنسان إلا بمشيئة الله تعالى ولا نزيد على هذا ولا نقصم بحرك لا نقدر على مباحته (المؤلف رحمه الله).

(١) استعمله بمعنى المحتاج، وإنما هو بمعنى التقييل والله متعال أن يكون أحد، كلا عليه (للمؤلف).

(٢) لعله من خطأ الناسخ والوجه الإلهية (للمؤلف).

(٣) النور: ٤.

أهل الحق) أصحاب العناية الذين هم أهل السنة الباذلون أنفسهم فى سبيل الله بالجهاد الأكبر (له قدرة كاسبة) فقط لا خالقة الخ، فكيف رضى مع هذا بأن جعل الممكن الباطل بالذات خالقا لعزائمه مع أن قول التأثير فى أمر اعتبارى كان بمرأى عينيه وقد كان بينه هو بنفسه على وجه كاف ولم يتعقبه، فإن كان مختارا ولا بد فكان اختيار ما عليه جمع من المحققين وليس فيه مخالفة نص ولا إجماع أولى وأحرى، ولكن الله يفعل ما يريد^(١) هذا وتلميذ المحقق العلامة كمال بن أبى شريف وإن سائر هذا شيخه رحمها الله تعالى، لكنه أشار بعده إلى أن هذا خلاف ما عليه أهل السنة، حيث قال فى المسامرة عند قول المصنف قدمنا أن للمكلف اختيارا أو عزا ما يصمم ما نصه (اختيارا) على ما عليه أهل السنة (أو عزا) على ما اختاره المصنف. وتلميذه الآخر العلامة الدين بن قطلوبغا فى تعليقه على المسامرة لم يرض به أول الأمر وقال الطريق الذى سلكه المصنف أنه المرضى عنده الرفع للجبر، ولم يندفع به سأنبه عليه ثم أورد طريقا اختاره العلامة الفناى فى الفصول وقره، ومحصله هو التأثير فى الاعتبارى ولو لا غرابة المقام لأوردته مع ما يريد عليه. أقول وبما ذكرنا ظهر أن الفرق بين ما سار فى المسامرة وقضى به القاضى كالفرق بين الغرب والشرق فما قال فى المسامرة إن حاصل كلام المصنف رحمه الله تعالى تعويل على مذهب القاضى الباقلانى وتبعه علي القارى فى منح الروض الأزهر فقال ما اختاره هو قول الباقلانى من أهل السنة الخ.. فهما لا وجه له نعم إنما وافقه فى لفظ وهو أنه يكون منسوباً إليه تعالى من حيث هو حركة وإلى العبد من حيث هو زنا ونحوه وقال القاضى وقدرة الله تعالى تتعلق بأصل الفعل وقدرة العبد بوصفه من كونه طاعة أو معصية فمتعلق تأثير القدرتين مختلف كما فى لطم البنيم تأديبا وإيذاء فذات اللطم واقعة بقدرة الله تعالى وتأثيره، وكونه طاعة على الأول ومعصية على الثانى بقدره العبد وتأثيره المتعلق ذلك بعزمه المصمم. فلنأى الاشتراك فى نسبة صفة الفعل إلى تأثير قدرة العبد وأين ما ادعى المحقق من خلقه عزمه. أقول ما ذكر من الصفة أثر قدرة العبد حق بلا مرية لكن لا

(١) البقرة: ٢٥٣.

على الوجه الذى قرر المصنف بل الأمر أن المولى تعالى أجرى سنته بأن العبد إذا أراد فعلا يخلقه الله تعالى فيه ، فالإرادة بخلق الله تعالى والفعل بخلق الله تعالى وليس للعبد من الخلق شىء لكن كون الفعل إراديا يتوقف على إرادة العبد توقفا عقليا قطعيا إذ لو خلق الله فيه الفعل من دون أن يخلق فيه إرادته له لكان كحركة الحجر بالتحريك فلم يكن إراديا، والفعل لا يكون طاعة ولا معصية إلا إذا كان إراديا فهذه الصفة للفعل لا تحصل إلا بإرادتنا ، أى لكونه مصحوبا بالإرادة خلق الله تعالى فينا ولو لا ذلك لم يكن طاعة ولا معصية قطعيا ، ثم أنى رأيت المحقق ذكر فى التحرير، أما الخفية فالكسب صرف القدرة المخلوقة إلى القصد المصمم فأنثرا فى القصد ويخلق سبحانه الفعل عنده بالعادة ، فإن كان القصد حالا غير موجود ولا معدوم فليس بخلق وعليه جمع من المحققين وعلى نفيه فذلك (أى ليس الكسب بخلق أيضا) على ما قيل (أى قول صدر الشريعة) الخلق يقع به المقدور لا فى محل القدرة ويصح انفراد القادر جاء المقدور والكسب يقع به فى محلها ولا يصح انفراده بإيجاده ولو بطلت هذه التفرقة (بين الخلق والكسب) على تعذره أى بطل (أى بطلانها) وجب تخصيص القصد المصمم من عموم الخلق بالعقل . باختصار مزيدا ما بين الهالين من شرحه التقرير والتجسير لتلميذه المحقق ابن أمير الحاج رحمهما الله تعالى فقد أبان البون البين ما بحثه فى المسامرة وبين ما ذهب إليه إمام القاضى وظهرت بحمد الله تعالى منه على فائدة نفسية وهو أنى كنت كتبت على المسامرة قبل هذا بنحو: أربع سنين ما نصه: نرجو أن المصنف رحمه الله تعالى رجع عنه إذ لم يذكره فى فذلكة ما يعتقده إلا ما عليه أهل السنة كما سيأتى ونرجو أن المولى سبحانه وتعالى جعل هذه الزلة الواحدة وإن عظمت مغمورة فيما أولاه من بحار الحسنات الجميلة، ونسأل الله الثبات على الحق وهداية الصواب فى كل باب وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله وسلم أبدا (أمين).

فبحمد الله تعالى قد حقق الله رجائي وظهر رجوع المحقق عن اختيار ما بحثه إذ علقه هنا على تعذر التفرقة بين الخلق والكسب، وصرح ببطلان التعذر فإذا بطل المبني وجب تهدم البناء، ولله الحمد وتصنيف التحرير متأخر عن تأليف المسامرة كما لا يخفى على من طالعه وذلك قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة والحمد لله رب العالمين، أما ما أورد الشيخ على الإمام أبي بكر ألباقلاني كما نقله في البواقيت الإمام الشعراني مقرا عليه أنه يقال له هذه الحال مقدورة لله تعالى أم لا؟ على الثاني لا محالة تكون مقدورة للعبد وهو مذهب المعتزلة بعينه وعلى الأول لم يكن للعبد شيء ألبته وذلك هو مذهب الجبرية بعينه فلا فائدة للتمسك بالحال. باختصار أقول وتلك شكاة ظاهر عنك عارها ولما يترأى ظاهرا أن هذا سؤال عام الورود ولا محيص عنه لشيء من الأقوال، فشان من اثبت للقدرة الحادثة تأثيرا ما في شيء من عين أو حال فيقال له كما قلتم فإن قال إن ذلك الشيء ليس مقدور الله تعالى فهو الاعتزال، أو قال مقدور له لم يبق للعبد شيء وهو الجبر، ومن لم يثبت كسادتنا الأشعرية فقد أفصح بالشق الأخير من الأول فيقال إذن لا شيء للعبد البتة فهو الجبر بعينه وذلك لأنه إنما يريد إنكم لجأتم إلى هذا نفيا للجبر فإذا اعترفتكم أنه واقع بقدرة الله تعالى بقدرة العبد لاستحالة إجماع مؤثرين على أثر فقد انتفى الملجأ ولزم القرار على ما منه الفرار، فالمعنى هو الجبر بعينه عندكم، بل لما أقول يختار أنه مقدور الله تعالى بل ومراده أيضا لكن أراد أن يريد العبد فيكون فلا جبر ولا اعتزال وإلى منحي هذا ينحو ما في المسامرة، غاية ما فيه أنه تعالى أقدره على بعض مقدورا ته تعالى، كما أنه أعلمنا بعض معلوماته سبحانه تفضلا إلخ، وبالجمللة لا تنافي بين كونه مقدور الله تعالى ومقدور العبد بأقدار حتى يقال لم يكن للعبد شيء، وأيضا لا يلزم من كونها مقدورة للعبد الاعتزال، لأنهم يقولون بخالقية العبد، والخلق إفاضة الوجود والحال غير موجود ۝ هذا، وليعلم أنني لا أريد بالدفاع عن هذا القول أن أقول به إنما

أقول إننى لا أعلم ما يرده من نص أو إجماع وقد رأوا أن هنا ثلاثة أشياء حالت بين عيني إرادة العبد وفعله وتعلقها به فإن لم يكن للعبد تدخل فى شيء من ذلك خرج من البين قطعاً وهو الجبر حقاً، كما ألزم به الحنفية الأشعرية، بل قصد نصت الأشعرية، أنفسهم فى بحث عقلية الحسن والقبح أن فعل العبد اضطرارى غير اختيارى فوجب أن لا يوصف بحسن ولا قبح عقلاً، ونص الإمام أبو الحسن الأشعري أن العبد محل الفعل فحسب، وصرح كبار الأشاعرة كالإمام الفخر العلامة سعد فى آخرين أن المأل هو الجبر وأن العبد مجبور فى صورة مختار، وتبعهم القارى فى منح الروض فجعله الأنصاف، ومن المعلوم قطعاً وإجماعاً وسمعاً أن ليس للعبد شيء من الإيجاد فأرادته كقوله ليست إلا خلق ربه تبارك وتعالى فلم يبق إلا التعلق المسمى بالقصد، فقالوا هذا ما أقدره عليه ربه وليس من الخلق فى شيء كما عرفت، فهذا نزاع سادتنا الحنفية فى هذا الباب، أما أنا فكما ذكرت فى الفيوض الملكية تعليقات كتابي الدولة المكية، لست ممن يخوض فى هذا، وإنما إيمانى ولله الحمد ما ثبت بالقرآن وأجمع عليه الفريقان وشهدت به البدهة وأدى إليه البرهان أن لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين وسرت أسرد فيه الكلام إلى أن قلت فالتكليف حق والجزاء حق والحكم عدل والاعتراض كفر والاستبداد ضلال والتحجر جنون والجنون فنون ولا حجة لأحد على الله تعالى لما فعل ولله الحجة البالغة لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فهذا إيماننا وإن سألنا عما وراءه قلنا لا ندري ولا كلفنا به ولا نخوض بحرأ لا نقدر على سباحته، نسأل الله الثبات على دين الحق والحمد لله رب العالمين.

ثالثاً: الخلق لغة وعرفاً وشرعاً هو الإيجاد بالاختيار، قال تعالى (ألا يعلم من خلق) فأفاد أن العلم لازم للخلق وذلك هو الإيجاد بالقصد، فإن الموجب لا يجب أن يعلم الموجب من جهة كونه موجباً، وأن علم علمه من جهة أخرى، وأما ما نوزع فيه بأن الدلالة بالتمتة وهو اللطيف الخبير، فأقول كونه لطيفاً خبيراً كاف، فلو لم

يكف الخلقية لكان إقحاماً من خلق مستدركا على أنه قد تواتر من القراء الوقف على من خلق، فهي جملة مستقلة وتوقف لها على ما بعدها والحق أن الكل دليل مستقل، فلو كان قصدنا بخلقنا لكان بقصدنا، وكل أحد يعلم من وجدانه إنما يريد الفعل لا أنه يريد أن يريد ثم يريد.

ورابعاً: لا يخالف ملى حتى المعتزلي أن الإرادة الكلية فينا ليس بخلقنا بل خلق ربنا خالق القول والقدر، فلا يكون لنا إن كان إلا القصد الجزئي. أقول، وليست كلية الإرادة المخلوقة في عبد أنها نوع تحت أفراد بل هي صفة شخصية قائمة بشخص، وإنما كليتها بمعنى على الإطلاق عن التعلقات، فكلما تعلقت بمقدور معين سميت جزئية، فما القصد الجزئي إلا خصوص تعلق تلك الصفة الشخصية بفعل شخصي، والتعلق أمر إضافي لا وجود له في الأعيان، فإن أسند إلى العبد لم يكن في شيء من الخلق، فلم عدلتم عن قول الحنفية وملتم إلى تخصيص النصوص.

وخامساً (١): هب أن القصد بالقصد فلا بد من الانتهاء إلى قصد ليس بالقصد وإلا تسلسل في الأعيان، لأنه وجودي عندكم، وإذا انتهى الأمر إلى الإيجاب انتفى الاختيار لزم القرار على ما كان منه الفرار أما قولهم الوجوب بالاختيار لا ينافي الاختيار بل يحققه، أقول: ليس هذا وجوباً بالاختيار بل اختياراً بالوجوب أي لا يستطيع أن لا يختار وهو ينافي الاختيار بمعنى التمكن من الترك قطعاً فيعود المحذور وارداً على القائلين بالتأثير في الجال أيضاً، ولا محيص بما قالوا أن القصد اعتباري فليستسلسل، وذلك لأنه في المبدأ محال ولو في الاعتبار، أقول لأن سر

(١) أقول وهنا دليلان آخران يمكن له الجواب عنهما، فالسادس «وما تشاؤون إلا أن يشاء الله» فمشتنا ليست بمشتنا بل بمشيئة ربنا، والسابع ورد مرفوعاً وانعقد إجماع المسلمين على قوله ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فلو لم يشأ مشيتنا لما كانت لكن كانت فقد شأنها والجواب عنهما مشيتنا بمشتنا لمشيئته أن تكون بمشيئتنا ويخص الأول أن المعنى لا تشاءون شيئاً من أفعالكم إلا ما شاء الله أن يخلقه عند مشيتكم (للمؤلف).

تجويزه هو انقطاعه بانقطاع الاعتبار، وههنا حيث انقطع ما تحته لانعدام العلة فيعدم الفعل، ولا بان قصد القصد عين القصد، فإن المحتاج كيف يكون عين المحتاج إليه، ولا بأنه عديمي فلا يحتاج إلى مؤثر فإن كل متجدد لا غناء له عن مؤثر ولو عديمياً كالعمى، ولا بأن اختيار المختار لا يعلل كإيجاب الموجب، أقول، نعم لا يسأل لم خصص هذا لا ذاك، كما حققته في رسالتي (الإفهام المصحح للترجيح بدون مرجح) التي الفتها بعد ورود هذا الاستفتاء، أما نفس التخصيص فمتجدد وليس له عن المؤثر محيص.

فإن قال الكل لا نريد بالاختياري إلا ما يقع بالاختيار أو عند الاختيار وإن لم يكن الاختيار بالاختيار، قلنا أن دفع قول الشعري أن فعل العبد اضطراري ولكن أين المحيص؟ من ثبوت الحاجة للعبد في المعاصي، فإنه يقول ما خلقت وإنما قصدت وما كان قصدي أيضاً باختياري فما ذنبي؟، واعلم أن الكلام هنا ينجر إلى عويصة أخرى وأمر أدهى، لا تخل بأنامل الأفكار إلا بتوفيق العزيز الغفار، ولصعوبة هذا سكت عنه مثل السيد الشريف في موضعين من شرح المواقف، والتزم مصييته البحر في الفواتح والعياذ بالله تعالى، وتبعت كلمات المتكلمين والأصوليين من جميع مظان هذا البحث فاجتمعت لي منها ثمانية أجوبة لا غناء في شيء منها، ثم المولى سبحانه وتعالى فتح بفضلته وهداني للجواب الحق كما أوردت كل ذلك في رسالتي (تحرير الخبر بقصم الجبر) التي الفتها بعد ورود هذا الاستفتاء قبل أن أنهى الجواب عنه فنكل هذا البحث إليها، ونفيض فيما كنا فيه فنقول لهم تبين أن ما زعمتم أن الحاجة تندفع به فما حملكم على تخصيص النصوص، وأنت تعلم أن هذا كما يكفي للرد على المحقق رحمه الله تعالى، كذلك لرد كل ما يدعى العبد خالقاً له من فعل أو عزم غير ذلك للخلاص من هذه الورطة الظلماء، فإن الكلام يجري في الكل ولا يزال يتسلسل إلا بالإنهاء إلى الإلجاء وهذا ما نقل في شرح المقاصد وغيره عن المحققين أن المال هو الجبر فثبت

بالبرهان أن إسناد خلق شيء أما إلى العبد مع كونه مخالفاً للقرآن العظيم والإجماع القديم والدين القويم لا يسمن ولا يغنى من جوع، فوجب حمل كلام الله تعالى على عمومية، والإيمان بأن لا خالق إلا الله تعالى، ثم البداهة شاهدة بالفرق بين البشر والحجر، فلا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين ولا يلزم للعلم بأحقية شيء العلم بحقيقته كما بيته في (ثلج الصدر في الإيمان بالقدر) وهذا هو العلم الموروث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن رام فوقه فلنما يروم خطر اقتاد، أقول ومن الدليل القاطع على بطلان كل كلام أريد به حل هذه العقدة ما تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم من نهيه الأمة حتى أجله الصحابة الكرام الذين كانوا أعقل وأعلم وأفهم من كل من بعدهم عن الخوض فيه. وقد أخرج الطبراني في الكبير عن ثوبان رضي الله تعالى عنه مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اجتمع أربعون من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ينظرون في القدر والجبر فمنهم أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهم، فنزل الروح الأمين جبريل عليه الصلاة والسلام فقال يا محمد اخرج على أمتك فقد أحدثوا فخرج صلى الله تعالى عليه وسلم ملتصعاً لونه متوردة وجنتاه كأنما تفتأ بحب الرمان الحامض فتهضوا إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حاسرين أذرعهم ترعد أكفهم وأذرعهم فقالوا تبنا إلى الله ورسوله فقال أولى لكم إن كدتم لتوجبون أتانى الروح الأمين فقال اخرج إلى أمتك يا محمد فقد أحدثت.

افترى أن هذا الغضب الشديد والنهي الأكيد كان لأن أبا بكر وعمر وسائر الصحابة رضي الله تعالى عنهم لم يكونوا أهلاً لأن يعرفوا كلمة سهلة خفيفة أن العزم لكم والباقي لربكم أو غير ذلك مما يزعمه زاعم كلاب هو دليل قاطع على أن الأمر سر لا تبلغه العقول ولا يحيط به البيان وأن لا خير للأمة في كشفه عليهم وإلا لما ضن الله به ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، فالحق الناصع ما عليه أئمة السلف أن الأمر بين لا ولا، ولا مصدر لنا الآن فوق ذلك وما نحن من المتكلفين الحمد لله رب العالمين .

فالجملية القول: أن هذا البحث يخالف النصوص و الإجماع والأشاعرة والحنفية والوجدان والبرهان. هل يعتقد به أهل السنة؟، أو هل يأخذه إمام ابن الهمام حاش لله، العقيدة هي ما قال الله تعالى ﴿هل من خالق غير الله﴾^(١) وقال ﴿ألا له الخلق والأمر﴾^(٢) وقال ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾^(٣) وقال: ﴿لا يخلقون شيئا وهم يخلقون﴾^(٤).

العقيدة هي ما كتب الإمام ابن الهمام بنفسه في مستهل هذا الأصل: أن الله لا خالق سواه. والعقيدة هي ما صرح بها الإمام الممدوح بنفسه في آخر كتابه المسائر حيث عرض قائمة لأصول عقائد أهل السنة ودعا الله تعالى أن يشته على العقيدة إلى أن يلقاه، إذ يقول: ولنختتم الكتاب بإيضاح عقيدة أهل السنة والجماعة وهي: أنه تعالى واحد لا شريك له منفرد بخلق الذوات وأفعالها (إلى أن قال) عليه الرحمة ذى الجلال، والله سبحانه نسأله من عظيم جوده وكرمه أن يتوفانا على يقين ذلك مسلمين أنه ذو الفضل العظيم وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

العقيدة هي ما صرح بها الإمام صدر الشريعة في التوضيح كما مربك خلال التحقيق .

والله تعالى أعلم بالصواب

(١) فاطر: ٣. (٢) الأعراف: ٥٤.

(٣) النحل: ١٧. (٤) النحل: ٢٠.

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٩	شكر واجب.....
١١	إهداء.....
١٣	أمل الآمال.....
١٧	تقدمة لفضيلة اندكتور صافى.....
٢٣	مقدمة للمترجم.....
٥٣	القول الأول.....
٥٥	القول الثانى إلى الخامس.....
٥٦	القول السادس.....
٥٧	القول السابع والثامن.....
٥٩	الإجابة.....
٧٠	خلاصة القول.....
٧٠	تنبيه.....
٧٠	أقول.....
٧٣	أقول.....
٧٤	الرد على القول الثانى والثالث والرابع.....
٧٦	القول الخامس.....
٧٧	ثانيًا.....
٧٨	ثالثًا.....
٧٩	رابعًا.....
٨١	ثم أقول.....
٨٢	القول السادس.....
٨٤	القول السابع.....
٩١	تنبيه.....
٩١	القول الثامن.....

الموضوع	الصفحة
ملاحظات على اسم الكتاب	٩٤
الوجه الأول	٩٤
الوجه الثاني	٩٧
الوجه الثالث	٩٩
الوجه الرابع	٩٩
الوجه الخامس	١٠٢
تنبيه النبيه	١٠٣
حكم نهائي في صاحب كتاب الفيلسوف	١٠٧
خاتمة	١١٠
التنبيه الأول	١١٠
التنبيه الثاني	١١١
التنبيه الثالث	١١٢
التحير بباب التدبير	١١٩
إهداء	١٢١
استفتاء	١٢٣
القمع المبين لآمال المكذبين	١٣٩
إهداء	١٤١
مقدمة	١٤٣
الفتوى	١٤٤
الإجابة	١٤٥
المثال الأول	١٥٣
المثال الثاني	١٥٦
فهرس الموضوعات	١٧٣

